جامعة الأزهر
كلية الدراسات الإسلامية والعربية
للبنين بالديدامون – شرقية

بنية التعجيب في القرآن الكريم

إعداد

دكتور: خديجة محمد الصافي

المدرس بقسم اللغة العربية بكلية الآداب – جامعة الجوف

البريد الالكتروني: a٤h٢a٣s١@gmail.com

العدد السابع

١٤٤٢هـ/ ٢٠٢٠م

بنية التعجب في القرآن الكريم

خديجة محمد الصافي

قسم اللغة العربية　　كلية الآداب　　جامعة الجوف　　مدينة الجوف

المملكة العربية السعودية.

البريد الالكتروني : a٤h٢a٣s١@gmail.com

ملخّص الدراسة

تتحمس النفس البشرية بعد أن يتم تحفيزها بخطابات من أنماط مختلفة، وتكشف إيجابًا وسلبًا عن مكوناتها في ذلك الوقت، أو قد يتم إنجاز إجراءات بشأن تلك المحفزات اللغوية، وربما تتوافق هذه الإجراءات مع الغرض الذي تم إعداد هذه الحروف من أجله، و ربما ضل طريقه عنه.

نظرًا لأن اللغة العربية، مثل اللغات البشرية الأخرى، تستفيد من إمكانياتها، فقد استخدمت خصائصها الصوتية والصرفية والنحوية والدلالية والتداولية من أجل تحقيق الوظيفة الأساسية للغة (وظيفة الاتصال)، وهذه الوظيفة هي أغراض متعددة، بما في ذلك الغرض من الإعجاب؛ (عجب)، وهنا يلتقي الفضول بوظيفة أخرى في اللغة، تُعرف باسم "الأعجوبة".

وقد أشار اللغويون لدينا إلى التعجب والطرق، وصنفوه على أنها من أساليب الإفصاح، ولكن إذا علمنا أن (التعجيب يتجاوز علامات الدهشة، فيظهر في هذا البحث أن التعجيب قد أتى لخلق قوة إنجاز. هذا يدل على تأثيره على الفرد، وربما تجاوزه على المجتمع؛ وأنه من خلال استخدام الأساليب، قد تقابل بالتعجب، وكثير منها ينفرد بهذه الطريقة. وهنا أهمية البحث ودور النهج التداولي في المراقبة لوحظت هذه الهياكل.

The exclamation intention in the Holy Quran

Khadija Muhammad Al–Safi

Department of: Arabic Language   faculty of: *College of Arts*

University: Al–Jouf   city: Al–Jouf   country: Kingdom of Saudi Arabia

e-mail: a٤h٢a٣s١@gmail.com

Abstract:

The human psyche gets excited after being stimulated by speeches of different patterns, revealing positively and negatively about its components at the time, or actions may be accomplished about those linguistic stimuli, perhaps these actions correspond to the purpose for which these letters were prepared, and may have strayed from it.

Because the Arabic language, like other human languages, takes advantage of its capabilities, it has used its vocal, morphological, syntactic, semantic, and deliberative properties in order to achieve the basic function of the language (the communication function), this function that has multiple purposes, including the purpose of admiration; (Wonder), and here the curiosity meets another function in the language, known as "marveling."

Our linguists have referred to Exclamation and methods, and they classified it as a disclosure methods, but if we know that the (altaejib exceeds the signs of the astonishment, then it appears in this research that altaejib has been brought about to create an accomplishing force that shows its effect on the individual, and perhaps exceeded it to society; and that By employing methods, you may meet with exclamation, many of which are unique to this method. Here the importance of research and the role of the deliberative approach in monitoring these structures are noted.

مقدمة :

تتكيّف اللغة العربية كغيرها من اللغات مع مقتضيات الأحوال ؛فلا ينشأ كلام إلا وقد رُوعي فيه حال كلٍّ من المخاطَب والمخاطِب من حيث معرفتهما بقواعد اللغة ، و بالظروف الاجتماعية والثقافية المشتركة ،ومن حيث إلمامهما بالمعارف وبعلم المنطق أيضا ،فلا يُعقل أن يُنقل لطفل صغير –مثلا- خبرٌ عن ظلم زيد لخالد بقولنا :" أكل زيد خالدا" ،و لم تؤسّس عنده قبلُ القاعدة المنطقية ؛فالزمن و المقامات المختلفة كفيلان بأن يتعزّز بناء هذه الآلية عند الطفل ،ليدرك بعد أن ينضج فكره أن المقصود بالأكل في قولنا السابق الظلم عن طريق المجاز .

يُلاحظ مما تقدّم أنّ من شروط التواصل الأمثل بين الأفراد وجوب توافر وتضافر كل المعطيات السابقة (اللغة ،المعارف ،الثقافة ،المنطق) ،و لربما يبدو جليا لمستعمل اللغة أن تلكم القوالب ضرورية لتفسير التراكيب المنزاحة عن أصل دلالتها خاصة ؛فالتّعجب –مثلا – من الأساليب العربية ذات القوالب القارة (ما أفعله وأفعل به) ،فإذا علمنا أنّ التعجب في نحو قوله تعالى :﴿ فَمَآ أَصۡبَرَهُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ ﴾ (البقرة١٧٥) صادر عن الذات الإلهية ،ولأنّه لا يجوز أن نعجب من أفعال الله لأنّها لا تُقابل بأفعال البشر[1]،فإنّه لا يُعقل أيضا أن يصدر هذ الفعل من الله؛ بأن يعجب من حال الكفار ،وهو – سبحانه وتعالى – أعلم بها ؛لهذا يُدرك أنّ هذا الأسلوب ليس بتعجّب لأن المتكلِّم (المخاطِب) – وهو الله – لم تنفعل نفسه –عز وجل – مع الموقف ، بل هو أسلوب آخر متفرِّع عنه ،الهدف منه إخضاع نفس المخاطَب إلى حالة شعورية تُلزمه بالتّدبّر؛فيخرج منها بموعظة تحسّن من حاله في الدّارين ،فيأتي الكلام إمّا مُشوِّقا وإما مُتوعِّدا ،متوسِّلا بأسلوب وُسم ههنا بـ "التعجيب".

يظهر في الآية الكريمة أيضا أنّ التعجيب قد اشترك مع التّعجب في صيغة (ما أفعله) ،لهذا نجد أنفسنا في هذا البحث نُقابل التعجيب بالتعجّب في صيغه وأغراضه وبناه ،وذلك من أجل وضع الحدود الدقيقة بين مصطلحين تردّدا كثيرا في تراثنا بمصادره المختلفة ،غير أنّه لم يحظ بدراسة

---

(١) أمّا عن التعجّب من صفات الله تعالى ،فلا يجوز قياسا أن نقول :"ما أعلم الله" أو" ما أعدله" أو" ما أعظمه" ؛فهذه الصفات لا تقبل الزيادة ،وقد سُمع عن العرب قصدا للثناء على الله قولهم:" ما أعظم الله وما أقدره وما أجله" ، والمعنى:" ما أعظم الله أنه تعالى في غاية العظمة وأن عظمته مما تحار فيه العقول. يُنظر :حاشية الصبان على شرح الأشموني لألفية ابن مالك، علي الصبان الشافعي:٣/ ٢٢ ،ويُنظر : معترك الأقران في إعجاز القرآن :١/ ٣٢٢.

خاصة توضّح بُنى التّعجيب موضوع الدراسة ،كما أنّ المصطلح قديما قد لوحظ فيه خلط بين التّعجّب والتّعجيب كما سيأتي بيانه.

ومع أنّ التّعجّب قد دُرست بناه بشرح وافٍ في الكتب النحوية وإن كان فيه نظر ،إلاّ أنّ ما وُصف منه بالتعجّب البلاغي (بأساليب خبرية وإنشائية) لم يجد مكانا في الدِّراسة النحوية ؛ذلك أنّ النّحو وقتئذ قد اعتنى بالجملة ولم يتجاوزها إلى النصِّ ولا إلى ما وراء الجملة ،ولأنّ منهجنا في هذا البحث يستند على تحليل الخطاب اعتمادا على نحو النّص أو ما يُعرف بالنّحو الوظيفي ،وجب علينا الإشارة إلى مفهوم البنية في هذا النّحو أوّلا ،ثمّ مفهوم التّعجيب ثانيا ، حتى نحصر بُنى التّعجيب في القرآن وظيفيّا (تداولا).

١-مفهوم البنية Structure :

تترادف البنية مع مفهوم التركيب والنظام في سياقات كثيرة من بحوث اللغويين المحدثين، وربما كانت نظرية النظم عند الجرجاني أو ما يُعرف في علم اللغة النظامي بالوظيفة النصية **textual function**[١]، هي الوظيفة الأساس التي يتفنن فيها المتكلم في بناء النصوص ؛بالربط بين أجزاء النص الواحد استعانة بقواعد محددة في اللغة ،في إنشاء علاقات سياقية متعدِّدة ،هذا النظام يميِّز بين أشكاله السامع أو المتلقي للخطاب عامة لاشتراكه مع المتكلِّم في تلكم القواعد.

في الدرس الحديث حدّد هاليداي مفهوم النظام **System** عندما عرّف النحو بأنّه "هو ذلك المستوى من الشكل اللغوي الذي يقوم على أنظمة مغلقة"[٢] ،و يُقصد بالأنظمة المغلقة المحصورة بالعدد من حيث العناصر ؛فلا تزيد ولا تنقص ،كما أنّه وجب اختلاف تلكم العناصر في النص الواحد من حيث الدلالة حتى ينشأ نص مختلف عن غيره.

فالنظام شبكة من العلاقات تقوم أساسا على اختيار معان ،ويبقى دور السياق واضحا في توجيه تلكم المعاني وتحديدها بدقة ،لهذا منح هاليداي لسياق الحال وظيفة قارة في تحقيق التواصل بعد أن طوّر مفهومه عما قدّمه فيرث ومالينوفسكي ،فجاء بمفهوم التنبّؤ عندما لاحظ أنّ الناس قد يفهم بعضهم بعضا رغم وجود الضوضاء ؛وذلك بمعرفة مجال الكلام (موضوع النص) ،ونوع المشاركة (العلاقة بين المشاركين) ،والصيغة (الوسيلة منطوقة كانت أم مكتوبة ،أم هما معا) ،[٣] .

---

(١) يُنظر : **Ibid.p.**١٤٣ ،عن علم اللغة النظامي-مدخل إلى النظرية اللغوية عند هاليداي ،محمود نحلة ،ط٢ ،،ملتقى الفكر ،٢٠٠١:٥٣.

(٢) **Halliaday.M.A.K** (١٦١) **in ,Kress.G(ed)** ١٩٧٦ **P.**٩٤. ،عن علم اللغة النظامي :١٠٣.

(٣) يُنظر: **Halliaday.M.A.K and Hasan R.**(١٩٠) **P.**٩ ،عن علم اللغة النظامي :٦١-٦٢.

يرى علم اللغة النظامي أنّ اللغة شـكل من أشـكال الفعل [1] ،يتجلى هذا في تراكيب متباينة تباين عناصرها اللغوية من جانب وتوزيعاتها من جانب آخر ،من هذه الأشكال نجد التّعجيب .

٢-مفهوم التّعجيب : لغةً هو من الفعل عجّب ،و " عَجَّبَه بالشيءِ تَعْجِـيباً: نَبَّهَهُ على التَّعَجُبِ منه"[2]،يلتقي هذا المصـدر في جذره مع "التعجّب" ،وهو مصـدر للفعل "تعجّب" الموزون على "تفعّل"، وهو :" إِنكارُ ما يَرِدُ عليك لِقِلَّةِ اعْتِـيادِه ...؛(فـ)التَّعَجُّبُ: أَن تَرَى الشيءَ يُعْجِـبُكَ، تَظُنُّ أَنك لم تَرَ مِثلَه".[3]

فإذا كان التعجّب من حيث الاصـطلاح قد عرّفه الدماميني بقوله: "انفعال يحدث في النفس عند الشـعور بأمر يُجهل سـببه "[4] ، فإنّ التعجيب – على زنة "تفعيل" – يحمل هذا الوزن ضـمنا صـفة الإخضـاع للفعل ،فالفعل "عجّب" بتضـعيف عين الفعل ،فيه من تكرار الفعل ما يؤول بمعنى "التعجيب" إلى إخضـاع نفس الآخر للاندهاش من أمر ما ،والاسـتغراب والتعجيب مقترنان دائما ،وقد ورد هذا المصـطلح في أمّات الكتب بالدال والمدلول أنفسـهما ، كما قد ورد – في بعضـها– بديلا عن مصـطلح التّعجب تجوّزا ،أو أنّ مصـطلح التعجب قد ورد بديلا عن التعجيب تجوّزا أيضا في بعضها الآخر ؛وذلك راجع لاشتراكهما – أعني التعجّب والتعجيب – في المادة الواحدة (ع ج ب) من جهة ، وفي الحدث وهو التعجيب في كليهما ؛ غير أنّ النّص في التّعجّب ينشأ تبعا لنشأة الانفعال في النّفس ،أمّا في التّعجيب ،فذكر السـكاكي أنّه ينشـأ فيه النّص بدايةً لتحريك انفعالات المتلقي قصد تعجيبه آخِرا[5]لأغراض مختلفة (التشويق ،التحذير ...).

يأتي التعجيب لإحداث الانفعال في نفس المتلقي للخطاب ؛قد يأتي هذا الانفعال إيجابيا عند محبة الفعل وتعظيمه عند مُنشـئ هذه البنية لغرض التشـويق مثلا ، فيحدث التعجيب نتيجة عدم اسـتيعاب العقل لتفاصـيل الصـورة المعروضـة ،و قد كثُر هذا الغرض في القرآن الكريم توسّـلا بالاستفهام بـــ"ما"؛ لما فيها من إبهام يعين العقل على مدِّ الصورة حتى تصل إلى أقصى حالاتها ،لهذا

---

(١) يُنظر :علم اللغة النظامي : ٧٣.

(٢) لسان العرب ،ابن منظور :مادة (ع.ج.ب).

(٣) لسان العرب ،مادة (ع،ج،ب)

(٤) الشافعي علي الصبان ،حاشية الصبان على شرح الأشموني لألفية ابن مالك، ت:طه عبد الرؤوف سعيد ، ط١- بيروت-لبنان ،دار الكتب العلمية ،١٤١٧ / ١٩٩٧: ٣/ ٢٣ ، و الرضي الإستربادي محمد ،شرح الرضي لكافية ابن الحاجب، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ،.١٤١٧/ ١٩٦٦ :٢/ ١٠٨٨.

(٥) يُنظر: جلال الدين القزويني،الإيضاح في علوم البلاغة ،ت: محمد عبد المؤمن خفاجي ،ط:٣ ،دار الجيل : ٢/ ١١٠.

ناسب هذا الأسلوب وصف الجنة وما فيها تشويقا ،نحو قوله تعالى : {فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ}[الواقعة:٨] .

يظهر هذا النوع من الانفعال أيضا في التعجّب ؛ كأن أعجب من جمال السماء قائلا:"ما أجمل السماء " ،ومن رجل ضخم الجثة :"ما أضخم هذا الرجل" ؛ لهذا رأى النحاة[١] أنّ الفاعل قد حُذف ههنا وجوبا[٢] لعدم معرفته ،وهو عندهم بمعنى شيء ،"وهذا الشيء غير محدود فيُترك لخيال القارئ"[٣].

أمّا الانفعال السلبي المُنشئ للتعجيب ،فيكون عند بغض فعل ما ؛كأن يحمل ضمنا دلالة التحذير، وقد جيء به في القرآن بتعليق "ما" أيضا عن العمل حال تسليطها على فئة ينتظرها وعيد، منه قوله تعالى {وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ}[الواقعة:٩] ،أمّا في التّعجّب، فمثاله أن أعجب من ظُلم رجل فأقول :"ما أظلم هذا الرجل ، أو "ما أشدّ ظلمه" ،و من جهله "ما أجهله وما أشد جهله" ،و من قبحه: " ما أقبحه و ما أوضح قبحه".

٣- بنية التعجيب في القرآن الكريم:

عبّر بعض النحاة عن فعل التّعجّب في كونه :" ما وضع لإنشاء التعجّب "[٤] ؛فالملاحظ أنّ فعل التّعجّب قد يحدث في النّفس عند استغراب أو استعظام أمر ما ،لينشأ في مرحلة أولى في النّفس المنفعلة، فيترجمه اللسان في مرحلة ثانية إفصاحية في بُنى خاصة عُرفت بأسلوب التّعجّب، كما أنّ هذا الفعل – أعني التّعجّب – قد يُعمد إلى إنشائه في نفس المخاطب ببُنى عديدة ،وحينها يُسمّى بالتّعجيب ؛ فـ"ما وُضع لإنشاء التّعجّب" قد عبّر عن بنى التّعجّب والتّعجيب ،مع مراعاة أنّ البنية في التّعجّب إفصاحية تأتي في مرحلة أخيرة ،وقد تملك قوّة إنجازية ؛وهي ما عُرف بلاغيا بأغراض التّعجّب أو لازم الفائدة فيه (التشويق، التخويف..) ،في حين نجد أنّ التّعجيب من

---

(١) أنكر بعضهم على النحاة إعرابهم لـ"ما" وما تبعها من إعراب لما تحمله من تكلّف في التأويل الراجع إلى الحذف غير المبرّر . ينظر : عبد الوافي وافي علي ،النحو الوافي ، ط٣،مصر ،دار المعارف: ٣/ ٣٤٣ .

(٢) الفاعل ضمير مستتر وجوبا تقديره "هو" يعود على "ما" بمعنى "شيء".

(٣) عفيفي أحمد مصطفى ،حول الصيغ ودلالاتها في اللغة العربية ،صحيفة دار العلوم للغة العربية وآدابها والدراسات الإسلامية ، الإصدار الرابع ،مصر مج١/ع١ ،١٩٩٢ ،محرم يوليه :١٨٢،١٨١.

(٤) يُنظر: ابن الحاجب جمال الدين ،الكافية في علم النحو ،ت: صالح عبد العظيم الشاعر ،ط:١ ،مكتبة الآداب (القاهرة)، ٢٠١٠ :٤٩ ، ويُنظر :عماد الدين إسماعيل ،الكناش في فني النحو والصرف ،ت: رياض بن حسن الخوام (المكتبة العصرية للطباعة والنشر –بيروت (لبنان) :٢/ ٤٩

الأفعال الكلامية التي تهدف إلى الإنجاز الفعلي دائما (الإخضاع للتّعجّب لتحقيق أغراض بلاغية سيأتي بيانها) ،وتكون البنية فيها هي المرحلة الأولى لتحقيق فعل التّعجّب ،وبعده تتحقّق تلكم الأغراض.

فبنية التعجيب في القرآن الكريم يمكن تصنيفها إلى :

٣-١- الصيغ القياسية للتعجيب :

يشترك التعجيب مع التعجّب في صيغة "ما أفعله" ،ولأنّنا وضّحنا أنّ الفرق بينهما من الناحية الإجرائية ،هو كون البنية في التّعجّب تأتي متأخّرة عن الانفعال بزمن غير ملحوظ ،في حين أنّ البنية هي المُنشئة للتّعجّب في وظيفة التّعجيب ،أمّا عن صيغة "أفعل به" التي عدّها النّحاة صيغة قياسية ثانية للتّعجّب ،فقد تبيّن أنّها صيغة خاصة بوظيفة التّعجيب على ما سنبيّنه :

-ما أفعله : يرى النحاة أنّ التعجب في أصله خبر ،فيقول الرضي: "معنى ما أحسن زيدًا في الأصل شيء من الأشياء جعل زيدًا حسنًا، ثم نقل إلى إنشاء التعجب وانمحى عنه معنى الجعل، فجاز استعماله في التعجب من شيء يستحيل كونه بجعل جاعل نحو: ما أقدر الله وما أعلمه"[1]، فـ "ما" بمعنى شيء، وهي في محل رفع مبتدإ ،و"أفعل" فعل ماض مبني على الفتح ،فاعله مستتر وجوبا تقديره "هو" يعود على "ما" ،وهذا ما حقق التعجّب لعدم تحدّد فاعله ،و "الهاء" في محل نصب مفعول به ،والجملة الفعلية "أفعله" في محل رفع خبر .

ولا شتراك التعجب والتفضيل في صيغة "أفعل" رأى د .تمام حسان أنّ التّعجّب في أصله أسلوب تفضيل ،وقد نُقل إلى هذا المعنى (التعجّب) في بناء مخصوص ،ولا سيما أنّ شروط صياغتهما واحدة"[2]، وقد خصّ الرضي التّعجب بأنه لا يُبنى إلا مما وقع في الماضي واستمر حتى يستحق أن يُتعجّب منه، بخلاف التفضيل فإنه قد يأتي من المستقبل نحو :"أنا أضرب منك غدا"، لهذا كان فعل التعجب ماضيا على أشهر صيغه في رأي الرضي.[3]

أشرنا في مقدّمة هذا البحث إلى أن التعجيب يشترك مع التعجب في صيغة "ما أفعله"، ويبقى تحديد أيّهما المقصود مرهونا بصاحب الخطاب أوّلا ، ثمّ نوع الدلالة ثانيا ،أي: أحقيقية هي أم مجازية؟، أو كما عبّر عنه هاليداي بمفهوم التنبّؤ ،ولأننا رأينا أنّ التعجب قد أُريد به حقيقةً الإفصاح عن انفعالات إزاء مواقف اختلفت فيها الأغراض (تشويقا ،تحذيرا ،سخريةً...) ،نجد أنّ هذه

---

(١) شرح الرضي لكافية ابن الحاجب ،محمد الإستربادي الرضي:٢/ ١٠٩٥

(٢) حسان تمام ،اللغة العربية معناها ومبناها ، القاهرة (مصر) ،ط٤، عالم الكتب ،١١٤:٢٠٠٤

(٣) يُنظر: شرح الرضي لكافية ابن الحاجب ،محمد الإستربادي الرضي ،٢/ ١٠٨٩

الصيغة نفسها – أعني "ما أفعله" – قد تُعبِّر عن طريق المجاز على معنى التّعجيب ،محاولةً لإحفاز المتلقي للخطاب – بعد غمسه في حالة انفعالية وقد رُسمت في ذهنه صورة الموقف – على إدراك معنى المعنى بعد أن استنكر الأمر بدايةً ، فمثلا يعبِّر الطالب لحظة اطِّلاعه على الاختبار في القاعة الدرا سية ،وقد انفعلت نفسه إيجابا مع الموقف قائلا :" ما أ سهل هذا الاختبار" ، فهذا تعجّب من الطالب.

العبارة نف سها إذا قالها أ ستاذ المادة في ال سياق نف سه (لحظة الاختبار ،وفي القاعة الدرا سية) لطلبته، ليس الغرض منها الإفصاح عن انفعاله ؛فهو على علم بمستوى أسئلة الاختبار ومُطّلع عليها، ولكنّ الأستاذ يريد إخضاع الطلبة لحالة شعورية ؛إمّا إيجابا إذا أريدت الحقيقة بسهولة الاختبار ،وذلك لغرض إحفازهم وتشويقهم لحيازة تقييم جيد لمعلوماتهم ،أمّا إذا أُريد المجاز تعبيرا من الأستاذ على صعوبة الاختبار بنقيضها، كان الغرض من تعجيبهم هو تعجيزهم أو تحديًّا لهم .

يظهر التعجيب بصيغة "ما أفعله " على ما ضُرب مثلا بالطالب وأستاذه في قوله تعالى – ولله المثل الأعلى – عند وصف مَن جَنف : { فَمَآ أَصۡبَرَهُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ}[البقرة:١٧٥] ، أشرنا فيما تقدّم أنّ الكلام ههنا صادر عن الذات الإلاهية ،وقد اختُلف فيه :أهو تعجب[1] من الله أم تعجيب منه سبحانه وتعالى ؟؟ .

---

(١)قد يكون العجب من الله – أيضا – تسميةً مقابلة للعجب من العباد ،وذلك استنكارا لإعراضهم عن الحق ؛كما يُقابل مكر العباد بتدبير الله في قوله تعالى :﴿ وَيَمۡكُرُونَ وَيَمۡكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ}[الأنفال:٣٠]،وقد " أَعلم اللهّ أَنه إِنما يَتَعَجَّبُ الآدميُّ من الشيءِ إِذا عَظُمَ مَوْقِعُه عنده، وخَفِيَ عليه سببُه، فأَخبرهم بما يَعْرِفون، ليعلموا مَوْقعَ هذه الأَشياء عنده" النهاية ابن الأثير٣/ ١٨٤ ، فيقول ابن الأَنباري في قوله:" بل عَجِبْتُ؛ أَخْبَرَ عن نفسه بالعَجَب، وهو يريد: بل جازَيْتُهم على عَجَبِهم من الحَقِّ، فَسَمّى فِعْلَه باسمِ فِعْلِهم" (منقول عن "شرح وتحليل نونية القحطاني ٢٨٨)، وقد ورد العجب من الرسول ومن المعرضين واختلف السبب والمسمى واحد في قوله عز وجل: {وَإِن تَعۡجَبۡ فَعَجَبٞ قَوۡلُهُمۡ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدٍۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡأَغۡلَٰلُ فِيٓ أَعۡنَاقِهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ} [الرعد:٥] ؛ الخطابُ للنبي، صلى اللهّ عليه وسلم، أَي هذا موضعُ عَجَبٍ حيث أَنكروا البعْثَ، وقد تبين لهم مِنْ خَلْقِ السمواتِ والأَرض ما دَلَّهم على البَعْث، والبعثُ أَسهلُ في القُدْرة مما قد تَبَيَّنُوا"

ولأن العجب يكون للتعظيم أيضا ، ورد في الحديث: "عَجِبَ رَبُّكَ من قوم يُقادُونَ إِلى الجنةِ في السلاسِل"؛ أَي عَظُمَ ذلك عنده وكَبُرَ لديه ،فنجد أنّ معنى العجب في الآية موضوع النقاش بمعنى التعظيم إذا أُسند إلى المخاطب فقيل:" بل عَجِبْتَ، معناه بل عَظُمَ فِعْلُهم عندك ، وقد أَخبر اللهّ عنهم في غير موضع بالعَجَب من الحَقِّ؛ قال: أَكانَ

فمن أجاز كونه تعجّبا من الله، كانت حجّته قول الله تعالى:{بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ}[الصافات:١٢]

على قراءة حمزة والكسائي بضم التاءِ، وكذا قراءة علي بن أَبي طالب وابن عباس؛ وقرأ ابن كثير ونافع وابن عامر وعاصم وأَبو عمرو: بل عَجِبْتَ، بنصب التاءِ ؛يقول الفراءُ: "العَجَبُ، إِن أُسْنِدَ إِلى اللهّ، فليس معناه من اللهّ، كمعناه من العباد"[1] .

ولأنّ المجاز يسمح - كما هو معلوم- بالتقارض بين الأساليب ، رأى أبو حيان إمكان تأويل "ما " في قوله تعالى ﴿ فما أصبرهم على النار﴾ - بعد أن بسط آراء من تقدّمه من المفسرين - على معانٍ ثلاثة : تعجبية و استفهامية ونافية ؛فالنفي على الحقيقة ؛إذ إن الله تعالى لن يُصبرهم على النّار[2]، ومع ذلك يمكن الوصول إلى لازم الفائدة من هذا الخبر ،وهو توعّد من الله لمن كان عالما بما نزّل، خاصّة أنّه وصفهم ولم يُصرّح بأسمائهم ، استعانةً بالاسم الموصول - وهو اسم عام - وقد أعانت صلته على الإخبار عنهم وما يأتون به من كفر ،لهذا جيء بعد الجملة الموصولية باسم الإشارة "أولئك" إخبارا ،وهي للإشارة إلى البعيد للتنبيه على بُعدهم مجازا عن طريق الحق ،فقال الله تعالى : { أُولَـئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلاَّ النَّارَ وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلاَ يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيم أُولَـئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُاْ الضَّلاَلَةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّار} [البقرة:١٧٤].

ولأنّ الاسم الموصول أقلّ تعريفا من اسم الإشارة ، سمح الأسلوب القرآني استعانة بصلة الموصول بعرض الصورة عن طريق المقابلة قصد إثارة انفعال المتلقي ليتدبّر :كيف لعاقل أن يستبدل الحق بالباطل ؟!، لهذا جيء بالتعجيب في قوله تعالى :﴿ فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّار }[البقرة ١٧٥] ،وقد جمع أبو حيان ما أجمع النحاة عليه من معان لـ "ما" ،فكانت إمّا تعجبية ، أو استفهامية مجازا لإفادة معنى التعجب ، أو موصولة وقد بيّنا وجه الفائدة من تداولها ؛فأما التعجب -وقد تبين لنا استحالة الفعل من الله تعالى - فيمكن ردّه على من يصح ذلك منه، أي:هم ممن يقول فيهم من

للناسِ عَجَباً؛ وقال: بل عَجِبُوا أَنْ جاءهم مُنْذِرٌ منهم؛ وقال الكافرون: إِنَّ هذا لشيءٌ عُجابٌ".(منقول عن لسان العرب مادة (ع ج ب)

(١)الفراء أبو زكرياء ،معاني القرآن ،أبو زكرياء ،ت:أحمد يوسف النجاتي وآخرون، مصر ،الدار المصرية للتأليف والترجمة، ط:١ :٢/ ٣٨٤.

(٢) ينظر : أبو حيان الأندلسي ،البحر المحيط ،ت:صدقي محمد جميل ،دار الفكر (بيروت)،٢:١٤٢٠/ ١٢٤-١٢٥..

رآهم: ما أصبرهم على النار! ، وظاهر التعجب، أنه من صبرهم في الحال،أي في الدنيا، لا أنهم سيصبرون، فأهل النار قد يجزعون من هول الموقف[1].

رأينا مما تقدّم أنّ الصبر قد استُخدم في معناه حقيقةً ،أي:" ما أصبرهم على عمل أهل النار"، أو " ما أصبرهم على عمل يؤدّيهم إلى النار" ،وقد يكون معنى "الصبر" بمعنى الجرأة ، وهي لغة يمانية، وبذلك جُمع بين المعنيين المتبادرين إلى الذهن ، أي:" ما أجرأهم على العمل الذي يُقرِّب إلى النار"، فهم يوصفون به في الدنيا [2].

قد يؤتى بالصبر مجازا لإرادة العمل، أي ما أعملهم بأعمال أهل النار! ، وقيل: هو مجاز أُريد به قلة الجزع، أي:" ما أقل جزعهم من النار! "،وقيل: هو مجاز أريد به الرضا، وتقريره أن الراضي بالشيء يكون راضياً بمعلوله ولازمه إذا علم ذلك اللزوم ،وهو النار هنا، فلما أقدموا على ما يوجب النار، وهم عالمون بذلك، صاروا كالراضين بعذاب الله والصابرين عليه[3] ،فقال الزمخشري: فما أصبرهم على النار! تعجب من حالهم في التباسهم بموجبات النار من غير مبالاة منهم[4].

أمّا كون " ما" استفهامية لا تعجبية، فلكون الاستفهام مجازيا على معنى التوبيخ ، أي: أيّ شيء صبرهم على النار حتى تركوا الحق واتبعوا الباطل؟ ،و أما كون " ما" نافية فقد تمّ بيانه، فجُمعت المعاني الثلاثة : التعجب والاستفهام والنفي، وجُمع في التّعجب الحقيقة والمجاز [5]،ومما يمكن حمله على هذه التأويلات أيضا قوله تعالى:{قُتِلَ الإِنسَانُ مَا أَكْفَرَه}[عبس:١٧]. [6]

-أفعِل به : أجمع النحاة على أنّ هذه الصيغة هي جملة فعلية تُصاغ لغرض التعجّب ،و اختلفوا حول طبيعة الفعل "أفعِل" ؛فرأى البصريون أنّ لفظه لفظ أمر ،ومعناه معنى الخبر ، أي أصله فعل ماض على صيغة أفعَل ، بمعنى صار ذا كذا، كـ"أغد البعير" ،إذا صار ذا غدة، ثم غُيِّرت الصيغة عند نقلها إلى إنشاء التّعجب ليوافق تغيّر اللفظ تغير المعنى من الإخبار إلى الإنشاء، وتجنّبا لإظهار الفاعل في فعل الأمر للمخاطب المذكر المفرد ،زيدت الباء ،وصارت ملازمة للفاعل ليصير على

---

(١) ينظر: البحر المحيط:٢/ ١٢٤.

(٢)ينظر : البحر المحيط :٢/ ١٢٥.

(٣) يُنظر: البحر المحيط:٢/ ١٢٥.

(٤)يُنظر: أبو القاسم الزمخشري ،الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل ،ط:٣ ،دار الكتاب العربي (بيروت)، ١٤٠٧: ١/ ٢١٦.

(٥) يُنظر :البحر المحيط ،أبو حيان الأندلسي:٢/ ١٢٥.

(٦) يُنظر :الزمخشري ، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل: ٤/ ٧٠٣.

صورة المفعول به كـــ"امرر بزيد" ، فأصل "أحسِن بزيد" :"أحسن زيدٌ"، أي: صار ذا حسن، فهمزته للصـيرورة[1] ،لكنّ الملاحظ أنّ تفسـير الطلب بالإخبار ههنا يُحمِّل الصـيغة فوق ما تحتمله، وعليه يجب أن تبقى هذه الصيغة على أصل وضعها ودلالتها ،وذلك لإنشاء التعجيب لا التعجّب.

بعد فحص دقيق لهذه الصـيغة نصـل إلى دعوة صريحة للتعجّب ،وهو ما عُرف بالتعجيب، وهذا ما أنبأت عنه صـيغة الأمر التي عدّها النحاة أمرا شـكليا ههنا لكون الفاعل غير ظاه ،فكانت بناءً متحجِّرا لا مطابقة فيه؛ لا نوعا و لا عددا بين الفعل وفاعله ،و بعد هذا الفحص لوحظ أنّ في تحليل النحاة لهذه الصيغة تكلّفا واضحا ؛فالتعجّب –وهو أسلوب إنشائي غير طلبي– لا يمكن أن يحلّ محله أسـلوب إنشـائي طلبي ،هو الأمر إلا أن يخرج هذا الأخير عن أصـل دلالته كما خرج الا ستفهام – مثلا – في توزيع معيّن لإفادة معنى التعجّب ؛ليكون الا ستفهام حينئذ مجازيا، وقد فسّر النحاة أيضـا تطوّر "أفعل" التفضـيل لإنشـاء أسـلوب التعجب ،فلماذا لا يُقبل القول بتطوّر فعل الأمر لإنشاء التعجيب ؟! .

أما د. فا ضل الـ سامرائي فقد ا ستنكر المغالطة التي وقع فيها النحاة وأوقعوا غيرهم فيها عند تحديدهم للمتعجّب منه في الصيغتين (ما أفعله وأفعل به) على أنّه مفعول به في الجملة الأولى، وفاعل في الجملة الثانية [2]،لهذا يرى بعض المحدثين ما رآه الكوفيون والزمخشـري من أن الفعل دعوة إلى التعجب والباء زائدة للدلالة على معنى التعجب أو أنها للإلصـاق والاسـم بعدها مفعول به، والفاعل ضمير المخاطب المستتر.[3]

يمكن الجزم بعدئذ بكون الأمر قالبا مسـتقرا لإفادة التعجيب لا التعجّب بعد تعليق حرف الإ ضافة (الباء) به في نحو :"أكرم بزيد" ،أو في قوله تعالى: {أَسۡمِعۡ بِهِمۡ وَأَبۡصِرۡ }[مريم:٣٨]،قال ابن عاشور مُعبِّرا عن هذا :" وأبصر به وأسمع صيغتا تعجيب". [4]

وبذلك ينتقل الانفعال بهذه الصيغة من المتكلم إلى المخاطب ،فـ"أكرِم" :فعل أمر للتعجيب، فاعله ضـمير مسـتتر وجوبا تقديره "أنت" ،والباء :حرف جر يمكن تفسـيره على معنى الإلصـاق

---

(١)يُنظر :أبو العرفان علي الصبان الشافعي ،حاشية الصبان على شرح الأشموني لألفية ابن مالك، ،ط:١ ، دار الكتب العلمية –بيروت (لبنان) ،١٤١٧/ ١٩٩٧ :٣/ ٢٦.

(٢) إبراهيم السامرائي ،الفعل زمانه وأبنيته ، ،ط:٣ ،مؤسسة الرسالة –بيروت (لبنان) ،١٤٠٣/ ١٩٨٣ :٧٤.

(٣) يُنظر :عبد الله بن أحمد بن أحمد محمد ، النحو العربي بين القديم والحديث –مقارنة وتحليل– ،دار اليازوري العلمية للنشر والتوزيع :٢٤٧.

(١) التحرير والتنوير (١٥/ ٣٠٢)

مجازا (الكرم ملاصق لزيد) ،أو على معنى الاستعانة (تعجّبٌ من الكرم مستعينا بزيد)، و"زيد": اسم مجرور لتعيين مَن وقع عليه الفعل ،فهو مفعول به بتعدية غير مباشرة بالحرف كتعدية الفعل كتب في قولنا: "كتبتُ بالقلم" أو الفعل "مرّ" في :" مررتُ بزيد" ،وعليه يمكن عدّ صيغة "أفعِل به" صيغة قياسية وحيدة خاصة بأسلوب التّعجيب.

٢-٢- التعجيب السّماعي :ويُقصد به ما ورد بنصِّه عن العرب لإرادة معنى التعجيب، ونجده في اللغة العربية بصيغ التعجّب السماعي نفسها ،ويبقى السِّياق حَكَما بينهما ؛فإذا أُريد الإفصاح عن الدهشة كان تعجّبا ، وإذا جيء به في الكلام قصد إرادة تعجيب المتلقي لا تعبيرا عن انفعال المتكلِّم كان تعجيبا، ومنه في القرآن:

-سبحان الله: استُعمل هذا التركيب في القرآن ليُراد به التعجيب لكون ما يُتحدّث عنه يتجاوز تنزيه الذات الإلاهية عنه [1]،كما أنّ هذا الكلام تعجيب لأنّه من كلام الله ،نحو قوله تعالى: {لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ}[الأنبياء:٢٢]

- قاتلهم الله: ويأتي بعد هذه الجملة الخَبرية في بنيتها ،الطلبية في وظيفتها (الدعاء[2]) ما يثير العجب، ويُعبّر عنه غالبا باستفهام إنكاري نحو قوله تعالى :{ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ}[المنافقون:٤].

٢-٣-التّعجيب الوظيفي: قد يأتي التعجيب في القرآن بصيغ قياسية كما في التعجب، وقد تُوظّف بعض التراكيب بمعونة من السِّياق لإحداث التعجيب على ما سنبيِّنه ،ولأنّ التعجيب يختلف عن التعجب في كونه متوجِّها إلى الآخر قصد حمله على الانفعال لأغراض ؛كالترغيب والترهيب والتوبيخ، جيء بالتعجيب في اللغة العربية على شكل بنية شبه قارة تدور حول الأحوال؛ فالحال أو ما يلتقي معه وظيفيا وصرفيا (كالخبر والصفة) يرد في سياقات خاصة ،مكوِّنا صورة من شأنها أن تتفاعل مع الشعور لتخلق عنصر التعجيب عند المتلقي .

يمكن أن يحدث التعجيب بالأسلوبين الخبري والإنشائي بمعونة من السِّياق على هذا النّحو:

٢-٣-١ التعجيب بالخبر: تجاوز التعبير بالخبر في بعض بناه الدلالة على صدق النسبة أو كذبها إسقاطا على الوقائع ،إلى توجيه انفعالات المتلقين له سلبا أو إيجابا مع تلكم الوقائع وفق هذه البنى:

أ)-توظيف المفعول المطلق المؤكّد لعامله في الكلام: وممن أشار إلى هذا الاستعمال الطاهر بن عاشور ،فرأى أنّ تنوين التنكير اللاحق للمصدر المؤكِّد دليل على

---

(١) يُنظر :محمد الطاهر بن عاشور ،التحرير والتنوير ،الدار التونسية (تونس) ،١٩٨٤ :١٥/ ١٠

(٢) يُنظر: الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل :٤/ ٥٤١.

التعظيم[1]،و قد حُقّ لكل عظيم أن يُتعجّب منه ؛ خاصـــة أنها أفعال اقترنت بالذات الإلاهية؛ كـــ" صبًّا، و شقًّا" في قوله تعالى :{أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاء صَبًّا}[عبس:٢٥] ،وقوله أيضا : {ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَـقًّا}[عبس:٢٦] ،والاستعمال نفسه يُحدث التعجيب بين العباد ؛كأن يُنقل عن زيد خبر ضربه لخالد بقولنا :" ضرب زيد خالدا ضربا" ،فلا يؤكّد الفعل "ضرب" إلا وقد كانت مظنّة امتناعه شبه مؤكّدة ،فوقوع الحدث كوقوع ما لا يُتوقّع حدوثه وقد وقع.

ومن التوكيد أيضا استخدام "قد" مع الفعل الماضي لإفادة التحقيق (قد خسر ،قد ضلوا) مع إتباع الكلام بجملة مؤكّدة(ما كانوا مهتدين) في قوله تعالى : {قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُواْ أَوْلاَدَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ اللّهُ افْتِرَاء عَلَى اللّهِ قَدْ ضَـلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ}[الأنعام:١٤٠]، فالإخبار عن هؤلاء بالضـلالة وقد تقدّمه ذكر لخسارتهم ، و تلاه توكيد لهذا الخبر أحدث التعجيب[2].

ب)-تصدّر التنبيه في الجمل الخبرية: تنوّعت أدوات التنبيه في اللغة العربية ،ومن ذلك :

-الفعل " قل": نحو قوله تعالى : { قُلْ إِنَّ اللّهَ يُضِـلُّ مَن يَشَـاء وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ}[الرعد:٢٧]، فمقول القول استُعمل في تعجيب الرسـول – عليه الصـلاة والسـلام– من الضلال الذي أُغشيت قلوب الكفّار به وقد توفّرت أمام أعين رؤوسهم سُبل الهداية .[3]

-الإشارة: يأتي اسم الإشارة مسبوقا بحرف التشبيه (الكاف) كنايةً لوضع المتلقي للخطاب في سياق تقابلي بين المشبه والمشبه به فيحدث التعجيب إذ بلغ المشبّه قوة المشبّه به كتشبيه الضلال في قوله تعالى { ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُون مِن دُونِ اللّهِ قَالُوا ضَـلُّوا عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُو مِن قَبْلُ شَيْئًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللّهُ الْكَافِرِينَ}[غافر:٧٣-٧٤] ؛فـ:" معنى الإشارة تعجيب من ضلالهم، أي مثل ضلالهم ذلك يضل الله الكافرين".[4]

رأى ابن عاشور أنّ تصدّر التنبيه "ها" متلوا بضمير مُردَفا باسم إشارة دليلٌ على بنية خاصة للتعجيب كما في قوله تعالى :{هَاأَنتُمْ أُوْلاء تُحِبُّونَهُمْ وَلاَ يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُواْ آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّـواْ عَلَيْكُمُ الأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ

---

(١) يُنظر: التحرير والتنوير :٣٠/ ١٣١.

(٢) يُنظر: أبو محمد ابن عطية الأندلسي ، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ،ت: عبد السلام عبد الشافي محمد، ط:١، دار الكتب العلمية (لبنان) ،١٤٢٢: ٢/ ٣٥٣

(٣) يُنظر: التحرير والتنوير :١٣/ ١٣٦.

(٤) يُنظر: التحرير والتنوير :٢٤/ ٢٠٥.

الصُّدُور}[آل عمران:١١٩] ، فما بعد اسم الإشارة هو مجموع حالين متعارضين ،وكما هو معلوم أنّ مدار التّعجيب في الأحوال وقد تفاعلت مع مكوِّنات النص[١] .

-التقديم: كتقديم الظرف ليثير العجب بكون مظروفه يتعارض معه عقلا ،وهو مقول القول؛ فانعدام الهداية وقد توفّرت سبلها يُحدث التعجيب عند المتلقين لهذا الخبر [٢] ، كما في قوله تعالى: {وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلاَّ رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ وَقَالُوا مَا هَذَا إِلاَّ إِفْكٌ مُّفْتَرًى وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءهُمْ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ}[سبأ:٤٣]، ومنه قوله أيضا : {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ قَالُواْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ}[البقرة:١١].

من التقديم أيضا تقديم المسند[٣] في الجملة الا سمية على أن يكون المسند إليه جملة موصولية تُعزِّز وجود التعجيب الذي كانت بدايته بذاك التقديم في الآية الكريمة: {وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لاَّ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلاَّ مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُون}[آل عمران:٧٥]

-**الجملة الشرطية**: يحدث التعجيب بالشرط لكون جوابه مما يستعظمه العقل وتتفاعل معه النفس، وقد كثُر توظيف "مَن" في القرآن في الجملة الشرطية لكون "مَن" تدلّ على العاقل، فكان الخطاب موجّها لكل عاقل ،أو الحث لاستعمال العقل للاهتداء إلى الخير العظيم الذي ينتظرنا في الدار الآخرة [٤]،نحو قوله تعالى : { وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا}[الطلاق:١١] ، فأُكِّد الخلود بالظرف "أبد" ،كما أُكِّد مضمون الجملة الشرطية بالجملة الخبرية :"قد أحسن الله له رزقا" لكون "قد" تفيد التحقيق، وهذا كلّه يُسهم في التعجيب.

أيضا تفيد "أي" وهي اسم شرط معرب في بعض السياقات التعجيب والتعظيم[٥] ،وهي قريبة من "ما" في الإبهام "أي" مما يقتضي التعجيب بها في نحو قوله تعالى : {فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاء رَكَّبَكَ}[الانفطار:٨].

---

(١) يُنظر: التحرير والتنوير:٤/ ٦٥.

(٢)التحرير والتنوير :٢٢/ ٢٢٥ و١/ ٢٨٣.

(٣)التحرير والتنوير ٣/ ٢٨٥.

(٤) يُنظر: ناصر الدين البيضاوي ، أنوار التنزيل وأسرار التأويل ،محمد عبد الرحمن المرعشلي ،ط:١ ،دار إحياء التراث العربي (بيروت) ،١٤١٨: ٥/ ٢٢٢.

(٥) يُنظر : البحر المحيط في التفسير :١٠/ ٤٢٢.

-حكاية الخبر المُستغرب: كحكاية أصحاب الكهف في قوله تعالى : {وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَاوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا}[الكهف:١٧] ، فتهدف حكاية هذه القصة العجيبة أن تتفاعل معها نفس كل متلقٍ لهذه الأخبار ليرى آيات الله العظيمة في كل خلقه فيهتدي ،وإلا كان ضالا وقد تهيأت له أسباب الهداية[1].

كثُر في نقل الأخبار المثيرة للدهشة في القرآن توظيف التنبيه باسم الإشارة خاصةً ،كما كثُر فيه التفريع والتفصيل في الصور المجملة بأدوات خاصة في اللغة العربية ؛ كاستعمال "ثم" للدلالة على الترتيب الرّتبي كما فضّل ابن عاشور وصفها ،والواو للتقسيم في قوله تعالى : {ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاء وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللّهِ وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُون}[البقرة:٧٤] ،فـ "ثمّ" تشير إلى مُجمل ما تقدّم في الآيات السابقة ،أي: " ومع ذلك كله" بقرينة الظرف المجرور مُضافا إلى اسم الإشارة (من بعد ذلك)، ثمّ شُبهت القلوب بالحجارة، وما زادها تعجيبا التفصيل في أحوال الحجارة بعد الواو (وإنّ من الحجارة...)حتى يُرى الخير من هذه الحجارة وقد انتفى عن تلكم القلوب.[2]

لوحظ أنّ ورود "ثمّ" في حكاية الأخبار وقد تساوقت مع الفعل المضارع لاستحضار الموقف المثير للعجب[3] ،هو دليل على بنية خاصة في التعجيب نحو قوله تعالى : {الْحَمْدُ للّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِم يَعْدِلُون}[الأنعام:١]، و قد يُوظّف الفعل المضارع الدال على التّجدّد لإحياء الصورة فتنفعل النفس معها [4]، خاصةً قد تعلّق بشرط تعلّقا غير مباشر بالعطف مع ما يُشير إلى ظرف الزمان المتكرِّر (كلما).

{لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلاً كُلَّمَا جَاءهُمْ رَسُولٌ بِمَا لاَ تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُواْ وَفَرِيقًا يَقْتُلُون}[المائدة:٧٠] ،وقول

---

(١) يُنظر: التحرير والتنوير :١٥/ ٢٨٠.

(٢) يُنظر: التحرير والتنوير :١/ ٥٦٢.

(٣) يُنظر: التحرير والتنوير :٧/ ١٢٨.

(٤) يُنظر: التحرير والتنوير :٦/ ٢٧٥.

قد تدلّ "ثم" في سياق تعجيبي آخر على الاستبعاد[1]،وهو ملازمات التعجيب كما في قوله تعالى: {ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ}[الأنعام:٢] من قوله :{هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلاً وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ}[الأنعام:٢].

من أساليب الحكاية أيضا المُحدثة للتعجيب هو التشويق بتوظيف استفهام مجازي[2] قبل سرد القصة، يحوي هذا الاستفهام ما يشير إلى عناصر القصة المهمة ،ويأتي التفصيل فيها بعد هذا الاستفهام، كما في قصة داود عليه السلام قوله تعالى : {وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ}[ص:٢١]؛ فبعد الاستفهام بدأ سرد القصة في قوله تعالى :{إِذْ دَخَلُوا عَلَىٰ دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لاَ تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلاَ تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَىٰ سَوَاء الصِّرَاطِ}[ص:٢٢] إلى آخر القصة ، وغالبا ما يأتي هذا النوع من الاستفهام بـ"هل" لتنبيه المتلقي على غرابة سيأتي ذكرها ،وهذا ما تنفعل معه نفس المتلقي..

٢-٣-٢ التعجيب بالإنشاء: الإنشاء منه الطلبي ومنه غير الطلبي ،فمن غير الطلبي لاحظنا توظيف صيغة التعجّب لإرادة التعجيب ،ومنه أيضا المدح والذّم ،ومن الإنشاء الطلبي يغلب توظيف الاستفهام :

أ)-**المدح والذّم** : تنفعل النفس مع المدح والذّم ليحدث التّعجيب ، فتسعى النّفس غالبا إلى العمل بما يُمدح به والابتعاد عمّا يُذمّ به ،من ذلك في القرآن وقد أُكّد بقسم[3] بقرينة اللام الموطِّئة له، وهو كثير ، نحو قوله تعالى {كَانُواْ لاَ يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ}[المائدة:٧٩].

ب)-**الاستفهام**: قد جيء بالتعجيب في القرآن الكريم – غالبا – بأدوات استفهامية متعددة باستخدام "همزة الاستفهام، وهل، وما، ومن ، وأي، وأنّى وكيف" في تراكيب متباينة نوعا وتوزيعا،فيأتي التعجيب كالتعجب من الاستفهام المجازي[4] وفق هذه الأنماط:

---

(١) يُنظر: جلال الدين السيوطي ،معترك الأقران في إعجاز القرآن ،ط:١ ،دار الكتب العلمية –بيروت (لبنان)، ١٤٠٨/١٩٨٨ :٢/ ٥٩٥.

(٢) يُنظر: أنوار التنزيل وأسرار التأويل :٥/ ٢٧.

(١) أنوار التنزيل وأسرار التأويل :٢/ ١٣٩.

(٤) وقد تنبه الجاحظ إلى استخدام هذا الأسلوب في كتابه "الحيوان" من أجل شد القارئ إلى مواطن مستفيدا من الأسلوب القرآني المعجز قائلا "أي شيء أعجب؟؟ " ، يُنظر : الحيوان ٧/ ٥٨ ،عن فاطمة مبارك ،العجب في أدب الجاحظ، تونس، الدار التونسية ،٢٠١٥.

-الاستفهام بـــ "أنّى" ،أو" أيان" أو "كيف" : تُوظّف هذه الأسماء كثيرا فيما يفيد الاستبعاد ،لهذا يأتي بها التعجيب ؛فـ"أيان" هو اسم استفهام للزمان المستقبل ، تأتي للاستفهام عن الشيء المعظَّم أمره ،أي في موضع تفخيم ، نحو قوله تعالى تعظيما ليوم القيامة {يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا}[النازعات:٤٢]،وكقوله تعالى:{يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ}[القيامة:٦].

أمّا "كيف" فتدخل على جملة مقيّدة بحال جملة غالبا لإحداث التعجيب ،وهو من التعجيب الوظيفي لا السماعي كما فضّل بعضهم تصنيفه ،ذلك أنّ الأصل في "كيف" أن تكون للاستفهام عن الحال، وعند توظيفها متبوعة بذكر صريح للحال كـ:﴿ وَكُنتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ ﴾ في قول الله تعالى:﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُون}[البقرة:٢٨]،تخرج مخرج التعجب ،وكأنّ "كيف" عُطِّلت عن وظيفتها الأصلية (السؤال عن الحال) بذكر حال هي مصدر العجب لعدم انسجامها منطقيا مع الفعل الذي قيّدته، وهو في الآية الكريمة "تكفرون"، وذلك إذا كان الكلام صادرا من العباد ،لأنّ ما صدر منه من الذات الإلاهية ،فيرجع إلى التعجيب.

يرى أحد الباحثين في اللغة أنّ الآية قد ازدحمت فيها صور عديدة ،وعند وقوفك على إحداها يظهر لك الغرض من الآية ،فيكون استفهاما توبيخيا عند رؤية من يكفر بالله وقد تجلّت آياته في كل خلقه بما في ذلك أنفسهم ،فحُقّ لهم التوبيخ ،وأنت بفعلهم ذلك تستنكر ،فيكون الاستفهام إنكاريا بعد أن جاؤوا بما يثير العجب، ليكون الا ستفهام تعجيبيا ،لهذا رأى الباحث أنّ المقام هو الذي يُحدِّد الغرض، ولأنّ المتلقي لهذه الآية قد يستحضر كل هذه المقامات فيمكنه أن يحكم على الا ستفهام في الآية أنّه توبيخي تعجيبي إنكاري (١)،والأصح أنّ هذه البنية هي بنية التعجيب، فيوصف الا ستفهام حينئذ بالتعجيبي، لأنه جامع لكل تلكم الأغراض على ما بيّناه أعلاه ،وهو كثير في القرآن .

أما "أين" فالأصل أن يُستفهم بها في اللغة العربية عن المكان ،لكن قد تفيد التعجيب مجازا كما يظهر في البنية التي ورد فيها السؤال في قوله تعالى:{فَأَيْنَ تَذْهَبُون}[التكوير:٢٦] ؛إذ إن المسؤول وقتئذ سينتبه إلى وجهته ،فإذا كانت بعكس ما هو مطلوب ،يحدث عنده بهذا السؤال تعجيب، فسلكت هذه الآية مسلك المثل، فكانت من مبتكرات القرآن التي عددها ابن عاشور في تفسيره، والاستفهام ههنا إما إنكاري ،وإما تعجيزي (٢) ،وهذا ما أفادته الجملة المعترضة المصدرة بفاء التفريع المفيدة للتوبيخ وللتعجيز، وقد رَبطت الفاء الكلام بما تقدم من حجج تثبت أن القرآن وحي من الله، فالفصل بين قوله تعالى {وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيم}[التكوير:٢٥]، وقوله {إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ

---

(١) https://vb.tafsir.net/tafsir٤٩١٦/#.Wq١n٨B٣wbMw

(٢)يُنظر :التحرير والتنوير:٣٠/ ١٦٤-١٦٥.

لِّلْعَالَمِين}[التكوير:٢٧] بالجملة الاعتراضــية – عند ابن عطية – على معنى التقرير، أي:" أين المذهب لأحد عن هذه الحقائق "[١] ،وهو ا ستضلال يلزم منه التعجب؛ كقولك لمن ترك الجادة واتبع الطريق المضلة: أين تذهب "[٢] .

أما "أنى" وأصل وظيفتها في اللغة العربية السؤال عن مكان ،فتكون بمعنى "من أين"، أو قد تأتي للـ سؤال عن الحال بمعنى "كيف" ،وقد تحمل "أنّى" ضمنا دلالة الا ستبعاد ، قد تُوظف "أنّى" مجازا للدلالة على التعجيب وقد سُبقت بما يفيد التّعجب صراحة بصيغة سماعية (قاتلهم الله) في قوله الله تعالى: {قَاتَلَهُمُ اللهُ أَنَّى يُؤْفَكُون}[التوبة: ٣٠] ،ولأن مصــطلح التعجيب لم يكن مســتقرا عند علمائنا العرب، رأينا أنهم كانوا يعبِّرون عنه في مواضــع كثيرة بالتعجب ،خاصــة ما كان منه صــادرا من الذات الإلهية ،لكن يأتون في تفاســيرهم بما يشــير إلى نقل التعجيب من الله إلى الخلق بالفعل "عجّب" ،لهذا رأى المفسرــون أن "أنى" في الآية الكريمة تفيد التعجب ،لكن التعجب راجع إلى الخلق على ســنن العرب في كلامهم ، والله لا يتعجب من شيء ، "وفي هذا تعجيب للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من تركهم الحق وإتيانهم الباطل. [٣]

-الا ستفهام بـــ"مَن" و"ما" : ولتعدد بنى التعجيب بهذين الا سمين في القرآن الكريم، يمكن تفصيل ذلك على هذا النحو:

الا ستفهام بـــ"ما " معلّقة عن العمل أو مقرونة بجوابها: الأصل في "ما" الا ستفهامية أن يُجاب عنها بتحديد المســتفهَم عنه ،فهي للاســتفهام التصــوري ،أما تعليقها عن العمل ، فيكون بالاســتغناء عن هذا التحديد لدلالة الســياق عليه ،أو أنه قد ذُكر فيما بعد "ما" ،ولأن "ما" قد اقترن بها معنى الإبهام – و قد رأينا كيف أوّل النحاة " ما" في " ما أفعله"– يكثر اســتخدامها للتعجيب، خاصــة أن الكلام صــادر عن الذات الإلاهية ،فمما ورد في القرآن قوله تعالى : { مَا أَصْــحَابُ الْمَيْمَنَة}[الواقعة:٨]و{ مَا أَصْــحَابُ الْمَشْــأَمَة}[الواقعة:٩] بعد ورود الآيتين بعد ﴿فَأَصْــحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾ و﴿ وَأَصْــحَابُ الْمَشْــأَمَةِ﴾ على التوالي بإظهار المســؤول عنه مجازا [٤]،وهو

---

(١) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز : ٥/ ٤٤٥.

(٢) يُنظر : أنوار التنزيل وأسرار التأويل :٥/ ٢٩١ ، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل:٤/ ٧١٣.

(٣) الواحدي أبو الحسن ، الوسيط في تفسير القرآن المجيد ، ت: عادل أحمد أبو الجود وآخرون ،ط:١ ،بيروت ،دار الكتب العلمية ،١٤١٥/ ١٩٩٤: ٢/ ٤٩٠.

(٤)لم يؤت بالضمير بعد "ما" في الآيتين كما في قوله تعالى: {وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَه} [القارعة:١٠] لاختلاف المقام، يُنظر : التحرير والتنوير :٢٧/ ٢٨٦.

مناسب لهذا المقام (التعجيب) ، وقد رُبطت الجملة هنا بتكرار المبتدإ، وأكثر ما يكون ذلك في موضع التهويل والتعظيم[1] .

وبتضام "ما" مع ما يُمدح من أفعال خاصة بأصحاب اليمين مما يُشعر بحال السعادة ، يحدث بالكلام تعجيب وتعظيم لشأنهم ؛كأنه قيل :"ما هم؟ ، وأي شيء هم؟؟ [2] بتعليق السؤال، والسماح للخيال بتصور أحوالهم من باب التشويق والتعظيم اللامتناهي ،والآيات لهذا الغرض كثيرة كقوله تعالى: {وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ}[الواقعة:٢٧] ،وقوله عزّ من قائل: {عَمَّ يَتَسَاءلُونَ}[النبأ:١] ، يُعقِّب الزمخشري على هذا النمط من الاستفهام بقوله: "ومعنى هذا الاستفهام تفخيم لشأنه كأنه قيل: عن أي شيء يتساءلون، ونحوه ما في قولك: زيد ما زيد؟ ؛جعله لانقطاع قرينه وعدم نظيره كأنه شيء خفي عليك جنسه فأنت تسأل عن جنسه"[3] ،فانقطاع القرين والنظير مدعاة إلى التعجيب ،ونحوه قوله تعالى : {مَا الْحَاقَّةُ}[الحاقة:٢] ،{مَا الْقَارِعَةُ}[القارعة:٢].

أما إذا تضامت "ما" مع ما يُذم من أفعال خاصة بأصحاب الشمال ،فإن المعنى على التعجيب من حالهم بالشقاء لغرض الترهيب حتى لا يأتي كل إنسان بأمثال أفعالهم نحو قوله تعالى: {وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ}[الواقعة:٤١] .

قد تتوارد "ما" الاستفهامية مع ما يكون جوابا عنها ،لهذا ينشأ التعجيب باستنكار جوابهم مُورَدا خبرا عنهم كما في قوله تعالى: {وَأَقْسَمُواْ بِاللّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِندَ اللّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءتْ لاَ يُؤْمِنُونَ} [الأنعام:١٠٩] ،أي "يحلفون بأنهم يؤمنون عند مجيئها ، وما يشعرهم أن تكون قلوبهم حينئذ كما كانت عند نزول القرآن وغيره من الآيات مطبوعا عليها فلا يؤمنوا بها." [4]

-الاستفهام بـ"ما" متبوعة بحرف الجر المفيد للاختصاص: ومن التعجيب على هذا التوزيع قوله تعالى :{وَمَا لِيَ لاَ أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ}[يس:٢٢] ،فقد حملت هذه الآية تعريضا بالكفار وقد ملك المتكلمَ (السائل مجازا) عجبٌ منهم ،فأراد أن ينقل هذا العجب إليهم حتى يعجبوا من حالهم طمعا في الانتصاح ؛ بقرينة قوله (وإليه ترجعون) بأن أُسند الرجوع إلى جماعة المخاطبين

---

(١)البحر المحيط ،أبو حيان الأندلسي:٨/ ٢٠٤-٢٠٥.

(٢)النسفي أبو البركات ،مدارك التنزيل وحقائق التأويل ،ت: يوسف علي بديوي، ط:١ ،بيروت ،دار الكلم الطيب، ١٤١٩/ ١٩٩٨:٣/ ٤٢٠.

(٣) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل ،أبو القاسم الزمخشري:٤/ ٦٨٤ .

(٤)الكشاف:٢/ ٥٨.

–وهم الكفار– تقوية لمعنى التعريض ؛ليكون معنى الآية :" و ما لي لا أعبد و ما لكم لا تعبدون الذي فطركم إذ جعل الإ سناد إلى ضميرهم ، وإنما ابتدأه بإ سناد الخبر إلى نف سه لإبرازه في معرض المناصحة لنفسه ،وهو مريد مناصحتهم؛ ليتلطف بهم ويداريهم ، فيسمعهم الحق على وجه لا يثير غضبهم ،ويكون أعون على قبولهم إياه حين يرون أنه لا يريد لهم إلا ما يريد لنفسه".[1]

كثيرا ما أُردفت "ما" بلام الاختصاص في العربية ،إما متصلة بضمير المتكلِّم ،أو ضمير الحاضر أو ضمير الغائب ،وقد أحصى ابن عاشور أشكال هذا النظم في القرآن فوجده خمسةً ذا معنى متّحد وبعده حال على هذا النحو: [2]

١- لام الاختصاص متصلة بضمير المخاطب بعده جملة حالية نحو قوله تعالى:{قَالُواْ يَاأَبَانَا مَا لَكَ لاَ تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُون}[يوسف:١١].

٢- لام الاختصاص متصلة بضمير المتكلم بعده جملة حالية نحو قوله تعالى :﴿ وما لي لا أعبد الذي فطرني﴾[يس:٢٢].

٣- لام الاختصاص متصلة بضمير المخاطب بعده استفهام مجازي بـــ"كيف" الدالة على الحال محل التعجب نحو قوله تعالى {مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُون}[الصافات:١٥٤]

٤- لام الاختصاص متصلة بضمير المخاطب بعده "واو المعية المفيدة للملابسة، والملابسة أيضا هي العلاقة المبينة للحال نحو (وقد غصت تهامة بالرجال)التي جاءت بعد المفعول معه (التلدد) في قول الشاعر :

فمالك والتلدد حول نجد ... وقد غصت تهامة بالرجال

والشاهد: نصب "التلدد" بتقدير الملابسة :" ما شأنُك وملابسةٌ زيداً، أو وملابستُك زيدا"[3]

٥- لام الاختصاص متصلة بضمير المتكلم بعده حال نحو قوله تعالى: {فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُواْ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُواْ مَنْ أَضَلَّ اللهُ وَمَن يُضْلِلِ اللهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلا}[النساء:٨٨].

يؤكِّد معنى التعجيب في هذا التوزيع – أعني:" ما+ لام الاختصاص + ضمائر المخاطب" – بحال جملةٍ تاليةٍ لحال قد تكون مفردةً ،أو قد تأتي جملةً مسبوقة بواو الاقتران الزمني أو الحال التي تُأوّل أيضا على الظرفية المجازية ،ويكثر هذا في سياق التّحاج كما في قوله تعالى: {وَمَا لَكُمْ لاَ تُؤْمِنُونَ

---

(١) التحرير والتنوير ،الطاهر بن عاشور : ٢٢/ ٣٦٨.

(٢) يُنظر: التحرير والتنوير :٢٣/ ٢٨٢-٢٨٣.

(٣)البيت لمسكين الدارمي، يُنظر :الكتاب ، سيبويه ،: عبد السلام محمد هارون: ١/ ٣٠٩.

بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ}[الحديد:٨] ، فقد ذُكرت الحالَ :﴿ لاَ تُؤْمِنُونَ ﴾ وقد تزامن كفرهم بالله مع دعوة الرسول لهم للإيمان ،وهذا ما أفادته واو الاقتران الزمني في قوله تعالى: ﴿ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ ﴾ ،وقد تمت الإشارة إلى أنّ التعجيب أساسًا حالٌ أو خبرٌ تتفاعل معها النفس ،لهذا لا يكون هناك استنكار ،إلا وقد تقدّمه تعجّب ،يقول صاحب المحيط :"هذا النوع من الا ستفهام يتضمن إنكار ما ا ستُفهم عن علته، وأنه ينبغي أن يوجد مقابله فإذا قيل لك، مالك قائما ،فهو إنكار للقيام ومتضمن أن يوجد مقابله "[1]، لهذا تدعو الآية الكريمة إلى الإيمان بالله .

يُلاحَظ بعد ا ستقراء لبُنى التعجيب في الا ستفهام بـ"ما" داخلةً على لام الاختصاص ، أنّه يكثر مجيء خبرها جملة فعلية منفية بـ"لا" ،تتصدّرها "أن" المصدرية ،ويغلب أن يكون بعد "أن" حكايةٌ لقول منكرٍ أو ما يومئ في سياق متقدِّم ،كما يغلب أن تتضمن هذه الجملة اسما موصولا غالبا ما يكون "ما" ؛ وهنا يتنقّل الخيال بين كل الصور المطابقة لصلتها دلالةً ،فـ"ما" تفيد تعميم ما تتضمّنه هذه الصلة ،ليحدث التعجيب كما في قوله تعالى: {وَمَا لَكُمْ أَلاَّ تَأْكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلاَّ مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ }[الأنعام:١١٩] ؛ ففي الآية استفهام قد تضمّن الإنكار على من امتنع من ذلك، أي لا شيء يمنع من ذلك[2] .

يكثر أيضا تقييد هذا النوع من الجمل بحال غالبا ما تكون جملةً ،نحو قوله تعالى: {وَمَا لَهُمْ أَلاَّ يُعَذِّبَهُمُ اللّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُواْ أَوْلِيَآءهُ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُ إِلاَّ الْمُتَّقُونَ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ}[الأنفال:٣٤] ،فالحال هنا جملة ﴿ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ ،أي: "أيّ شيء لهم في انتفاء العذاب"[3]، فهو في نظر أبي حيان استفهام تقريري، أي:" كيف لا يُعذَّبون وهم متصفون بهذه الحال الموجبة للتعذيب".

يُلاحظ مما تقدّم أنّ اتصال لام الاختصاص المسبوقة با سم الا ستفهام "ما" بكلٍ من ضمائر الخطاب وضمائر الغيبة ،وقد قُيِّدت الجملة بحال ،هي بنية تفيد التعجّب ،أما إذا زاد تقييده بحال جملة فهو تركيب يفيد التعجيب فقط .

-الا ستفهام بـ"ما" مع الفعل "درى" : علمنا فيما تقدم أنّ "ما" بمعنى "شيء" ،وهي تفيد استغراق ما تضمنته صلتها ،وهنا تظهر إحدى آليات التعجيب ،وهي توظيف الا سم الموصول

---

(١) البحر المحيط ،أبو حيان الأندلسي:٣/ ٧١٨.

(٢) البحر المحيط:٤/ ٦٣٠.

(٣) البحر المحيط:٥/ ٣١٣.

ليُتيح للعقل التدقيق في تفاصيل الصورة الواردة في الصلة ،فيُحلِّل ويقارن ،وربما يقف عند هذه الصور متعجبا من غفلته متدبِّرا ،خاصة إذا توارد "ما" مع الفعل "درىٰ" في الزمن الماضي (ما أدراك) ،وفي الزمن المضارع (ما يدريك) مُضافة إلىٰ ضمير المخاطَب، وقد لاحظ المبرد أنّ :"وما يدريك" قد وُظفت في القرآن كله وجوابها غير مذكور ،أمّا :"وما أدراك" فجوابها مذكور.(١)

أما ما ورد فيه الفعل "درىٰ" مفيدا للحال ،فمنه قوله تعالىٰ : {يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا}[الأحزاب:٦٣] ،وتكون دلالة الاستفهام فيه إنكارا لا معنىٰ فيه للتعجيب غالبا، أي لا سبب يوصلك إلىٰ العلم بقربها إلا الوحي الذي ينزل عليك(٢) ،وقولنا غالبا؛ أنه قد يأتي التعجيب منه أحيانا بمعونة من السياق ،سواء المقامي منه أو المقالي.

أما ذكر الجواب بعد " ما أدراك" – والفعل "درىٰ" في الزمن الماضي – فيشير إلىٰ أن الاستفهام قد خرج عن أصل استعماله لاقترانه بجوابه لإفادة التعجيب ،ولا يكون ذلك إلا في مقام عظيم ؛ إما ترغيبا نحو قوله تعالىٰ : {وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ}[المطففين:١٩]؛وإما تهويلا نحو قوله تعالىٰ: {وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ}[الحاقة:٣] ،وقوله :{وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ}[المدثر:٢٧] ،وقوله أيضا:{وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ}[المرسلات:١٤] ،وقوله:{وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ}[الانفطار:١٧].(٣)

-الاستفهام بـ"ما" مسبوقة بحرف الجر المفيد للتعليل: كثيرا ما يأتي طلب التّعليل عن أمر مبهم قد أفاده الاستفهام بـ"ما" لإثارة التّعجيب عن أمر مستنكر صدر عن المخاطب ،كما أفاده الاستفهام المُخاطب به أهل الكتاب في قوله تعالىٰ:{قُلْ يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَاءُ}[آل عمران:٩٩] ،وقوله أيضا {يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ}[آل عمران:٧٠]،وقوله {يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ}[آل عمران:٧١] للإنكار(٤)،{هَاأَنتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ

---

(١)يُنظر: " ما اتفق لفظه واختلف معناه " ،أبو العباس المبرد ، ت:أحمد محمد سليمان ،ط١ وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ،١٤٠٩ / ١٩٨٩:٧٣-٧٤.

(٢) الجمل:٤/ ٥٧ عن عضيمة محمد عبد الخالق ، "دراسات لأسلوب القرآن" ،القاهرة ،دار الحديث:٣/ ١٠.

(٣) الجمل:٤/ ٤٩٢ عن عضيمة محمد عبد الخالق ، "دراسات لأسلوب القرآن" :٣/ ١٠.

(٤) التحرير والتنوير : ٣/ ٢٧٩.

فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُون}[آل عمران:٦٦] ،وقوله أيضا: {يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالإنجِيلُ إِلاَّ مِن بَعْدِهِ أَفَلاَ تَعْقِلُون}[آل عمران:٦٥].

سُبقت الاستفهامات في الآيات أعلاه بتنبيه أفاده النداء بـ" يا أهل الكتاب" حتى يُقابل هذا الوصف بما ينفي عنهم العلم بالشرائع والأحكام بانتفاء عملهم بها ،وذِكرُ الشيء وانتفاء النفع منه هو من اجتماع المقابلات المنشئة للتعجيب إذا كان الخطاب من الله، أما إذا خاطب بهذا النمط من البناء عبد من عباد الله ،فقد يحتاج هذا الاستفهام إلى فضلة تفيد الإخبار عن حال دال على إبهام يُخصِّصه ما بعده ؛كأن تُخصَّص النكرة بجملة واصفة كما في قوله تعالى {وَإِذَ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا}[الأعراف:١٦٤]،فالجملة الاسمية﴿ اللهُ مُهْلِكُهُمْ﴾ كانت مثار العجب عند وصفها لما قيّد الاستفهام، وهو "قوم" ،فظهرت المقابلة بين حالين "توعظون" و"الله مهلكهم" لإثارة التعجيب.

من الألفاظ الدالة على الإبهام "ما" ،لهذا نجد استخدامها اسما موصولا فضلة في جملة قد دخل عليها الاستفهام المسبوق بلام التعليل ،ينشئ التعجيب أيضا ،خاصة بوجود التنبيه قبلها بالهاء مثلا (هَاأَنتُمْ ،و هَؤُلاء) مرتين ،كما في قوله تعالى : {هَاأَنتُمْ هَؤُلاء حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُون}[آل عمران:٦٦] ،وقوله :{يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لاَ تَفْعَلُون}[الصف:٢]،وقد سبق الحديث عن الصور اللامحدودة المنشأة بتوظيف الاسم الموصول "ما"، فـ﴿ما ليس لكم به علم﴾ و﴿ ما لا تفعلون﴾ قد أتاح للخيال أن يجمع بين كل المقابلات التي يصدق عليها انتفاء العلم أثناء التحاج ،وتعارض الأفعال مع الأقوال وهو من التحاج أيضا .

"من" : يكتنفها كـ"ما" غموض لعدم تعيينها ،فيحاول العقل أن يجد جوابا لها ،ليقع منه عجب بتعليق الإجابة عنها ،هذا العجب – في القرآن – قد يشوِّق صاحبه لا ستشعار وعد الله ،أو قد يشعره بوعيده ،فربما يقف ليتدبّر ، فيكون من الناجين ،وقد يكون ممن مدهم الله في طغيانهم يعمهون –نسأل الله السلامة –كما في قوله تعالى {وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ}[الأنعام:٢١] ،وقوله تعالى :{ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِآيَاتِ اللهِ وَصَدَفَ عَنْهَا}[الأنعام:١٥٧]، وقوله أيضا :{وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ}[الكهف:٥٧]، وقد قُرن الفعل "أعرض" في سورة السجدة بحرف العطف "ثم" في قوله عز وجل: {وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ}[السجدة:٢٢] ، هذا ما عزّز معنى التعجيب في الآية الأخيرة لغرض التحذير ؛ فالإعراض جاء متراخيا بعد التذكير بالآيات تراخيَ استبعادٍ كما وصفه ابن

عاشور[1]،يُضاف إلى أنه لا يُنتظر من هذه الآيات تحديد المفضل عليه (نحويًّا)بعد "أفعل" التفضيل (أظلم) ؛لأنّ المفضّل – وهو الا سم موصول (مَن) – قد بلغ أقصىٰ حالات الظلم بحسب ما دلّت عليه صلة الموصول؛ وهي الإعراض والتكذيب بآيات الله، والجرأة علىٰ الكذب علىٰ الله، وهي أقصىٰ تلك الحالات.

أمّا مجيء "من" في سياق الترغيب بالا ستفهام الإنكاري وقد أُخضِعت النفس للتعجب، فنجد منه قوله تعالىٰ {وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ}[البقرة:١٣٠]؛فقد دخلت "إلا" علىٰ الا ستفهام المجازي المنبئ عن إنكار واستبعاد ،والإنكار نفي ،أي:" لا يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه" ،وقد جُمعت كل الفضائل في إبراهيم للاقتداء به ولا يتخلف عن ذلك إلا سفيه[2]،فنُسخ الا ستفهام إلىٰ إثبات ،ليكون المعنىٰ :"يرغب عن ملة إبراهيم من سفه نفسه"؛ ولأن الفاعل جملة موصولية مصدّرة بـ"مَن" ،كان افتقارها للتعيين بما تفيده صلتها مدعاة للتعجيب (من سفه نفسه)، وهو استفهام يراد منه الترغيب في فعل أمر ما، كقوله تعالىٰ {مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً} [البقرة:٢٤٥] قصد اللحث[3]؛ فالإقراض ومضاعفة القرض من الله يثير في النفس التعجب ،حبّا في العمل الموصل إلىٰ هذه النتيجة.

نخلص مما تقدّم عن بُنىٰ التّعجيب باسم الا ستفهام "مَن" ،أنّ ما تُقيّده "مَن" يكون غالبا جملة موصولية، يكون اسمها "مَن" أو "الذي" ؛ ولانعدام إمكان تحديد المُستفهم عنه بسبب دلالة العموم في "مَن" من جهة ،ولأنّ من يعمل بمضمون الصلة {يُقْرِضُ اللّهَ قَرْضًا حَسَنًا} لا يحتاج أن يسأل عنه سائل لما ينتظره من خير من جهة أخرىٰ ،حينئذ يحدث التّعجيب.

ج-**دخول الاستفهام على جملة مقيّدة بحال** : كثيرا ما يفيد الا ستفهام بالهمزة التعجيب عند الإنكار بوجود حالٍ مُستفهَمٍ عنها تثير التعجُّب والاستغراب ؛لهذا قد يُعامل المخاطَب وكأنّه غير عاقل، وبهذا خاطب الله تعالىٰ علماء بني إسرائيل بقوله تعالىٰ: {أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ}[البقرة:٤٤] ؛فالا ستفهامُ في ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ﴾ لم

---

(١)واستأنس لهذا التوجيه بقول الشاعر:

لا يكشف الغُمّاء إلا ابنُ حُرَّة

يرىٰ غمرات الموت ثم يزورها

أي: عجيب إقدامه علىٰ مواقع الهلاك بعد مشاهدة غمرات الموت تغمر الذين أقدموا علىٰ تلك المواقع.

التحرير والتنوير ،الطاهر بن عاشور :٢١/ ٢٣٤.

(٢)يُنظر: التحرير والتنوير :١/ ٧٢٤

(٣)يُنظر: التحرير والتنوير :٢/ ٤٨١.

ينته هنا، ولو كان كذلك لوجبت الإجابة بـــ"نعم "أو "لا" لكون الاستفهام تصديقيا ،لكن مجيء الحال ﴿وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾ ألزم بتعليق الا ستفهام به ،فكان التَّعجيب مِنْ حالِهِمْ مع التوبيخ[1]؛ إذْ يأْمُر علماء بني إسرائيل الناسَ منْ عَامّتهم بالبرّ ؛بالتَّوَسُّع في أَعْمالِ الخير فوْقَ الواجبات التي فرضها الله ، و يتركون هم أنفسهم آداء ما فرض الله عليهم ؛فـ" مَنْ يَأْتِي مَا يَسْتَحِقُّ التَّوْبِيخَ عَلَيْهِ مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يَتَسَاءَلَ النَّاسُ عَنْ ثُبُوتِ الْفِعْلِ لَهُ ،وَيَتَوَجَّهُونَ إِلَيْهِ بِالسُّؤَالِ فَيَنْتَقِلُ مِنَ السُّؤَالِ إِلَى التَّوْبِيخِ ،وَيَتَوَلَّدُ مِنْهُ مَعْنَى التَّعْجِيبِ مِنْ حَالِ الْمُوَبَّخِ وَذَلِكَ لِأَنَّ الْحَالَةَ الَّتِي وُبِّخُوا عَلَيْهَا حَالَةٌ عَجِيبَةٌ لِمَا فِيهَا مِنْ إِرَادَةِ الْخَيْرِ لِلْغَيْرِ وَإِهْمَالِ النَّفْسِ مِنْهُ ،فَحَقِيقٌ بِكُلِّ سَامِعٍ أَنْ يَعْجَبَ مِنْهَا".[2]

ومن توارد همزة الاستفهام مع الحال وهو جملة ،قول امرئ القيس :

أيقتلني والمشرفي مضاجعي ومسنونة زُرق كأنياب أغوال

فالشاعر يستنكر التهديد بقتله والقدرة على ذلك ،وحاله أن لازمه المشرفي حتى في مضجعه، لتكون "الواو " واو حال وما بعدها جملة حالية ؛فالشـــاعر لا يعجب ممن هدّده ،بل يريد نقل الانفعال إلى الســـامع حتى يعجب من حال يســـتحيل معها التهديد ،فكيف يجرؤ عليه صـــاحبه ؟؟، وكون الحال بعد اســـتفهام قد عزّز دلالة الإنكار في الاســـتفهام ،وهو ما أحدث تعجيبا كما في قوله تعالى: {قَالَ يَاقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ}[هود:٢٨].

فحالة الكره الموصـــوف بها المخاطَبون في قوله تعالى :﴿وأنتم لها كارهون﴾ على اعتبار الواو للحال كان مقابلةً لقوله تعالى :﴿ أنلزمكموها﴾ ،وهي – أعني المقابلة – إحدى أساسيات البنية في التعجيب كما سيأتي بيانه ،وهو ما بيّنه الجرجاني قائلا :"واعلم وإن كنا نفسِّر الا ستفهام في مثل هذا بالإنكار ،فإن الذي هو محض المعنى أن ليتنبّه الســـامع حتى يرجع إلى نفســـه فيخجل ويرتدع ويعيى بالجواب"[3]،فيذكر الجرجاني مبيّنا سبب التبكيت ؛في أنّ هناك :

إمّا ادعاءً للقدرة على الفعل الذي لا يُقدر عليه .

وإمّا شروعا في فعل غير مستصوَب فعله.

وإمّا تجويزا لأمر لا يوجد مثله .

---

(١)"لَيْسَ التَّعَجُّبُ بِلَازِمٍ لِمَعْنَى التَّوْبِيخِ فِي كُلِّ مَوْضِعٍ ،بَلْ فِي نَحْوِ هَذَا مِمَّا كَانَ فِيهِ الْمُوَبَّخُ عَلَيْهِ غَرِيبًا غَيْرَ مَأْلُوفٍ مِنَ الْعُقَلَاءِ " ،التحرير والتنوير ،الطاهر بن عاشور:١/ ٤٧٥.

(٢)التحرير والتنوير :١/ ٤٧٥.

(٣)الجرجاني عبد القاهر ،دلائل الإعجاز ،ت: محمد رشيد رضا ،ط١ ،بيروت ،دار المعرفة ،١٤١٩/ ١٩٩٨.: ٩٣

فهذه حالات ثلاث إذا دخل عليها الاستفهام ،كانت كما لو استُفهم عن محال يثير العجب نحو: "أتصعد السماء؟ ،"أتستطيع أن تنقل الجبال؟ أ إلى رد ما مضى ـ سبيل؟ ،" فإنه لا يُقرر بالمحال، وبما لا يقول أحد إنه يكون إلا على سبيل التمثيل ،وعلى أن يقال له: إنك في دعواك ما ادعيت بمنزلة من يدعي هذا المحال ،وإنك في طمعك في الذي طمعت فيه بمنزلة من يطمع في الممتنع".(1)

د- المتناقضات في سياق الاستفهام الإنكاري: الجمع بين المتناقضات في سياق الاستفهام الإنكاري من بنى التعجيب الشائعة ،إذ يدخل الاستفهام ههنا على تنبيهٍ ثم تُذكر المتناقضات عقلا، فمن التنبيه دخول الاستفهام على حرف من حروف العطف ،نحو قوله تعالى: {أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُواْ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلاَمَ اللّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ}[البقرة:٧٥]، و قوله تعالى {أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ}[الأنعام:١٢٢]، وقوله أيضا : {وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا أَفَغَيْرَ اللّهِ تَتَّقُونَ}[النحل:٥٢]، فذُكرت المتناقضات في الآيات على التوالي: (الإيمان/ التحريف عمدا ،مَثَلُ المؤمن(الحي)/ مَثَلُ الكافر(الميت)، عبادة الله وخشيته وهو ملك الملوك/ خشية غير الله)، فالاستفهام الداخل على هذه المتناقضات يُحفِّز العقل ليتدبّر ،فيعجب لحاله المنافية للحقيقة.

قد يُسبق هذا الاستفهام أيضا بتنبيه بالفعل "قل" كما في قوله تعالى :{قُلْ أَغَيْرَ اللّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلاَ يُطْعَمُ قُلْ إِنِّيَ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ}[الأنعام:١٤] ،وقوله تعالى: {قُلْ أَغَيْرَ اللّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلاَ تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلاَّ عَلَيْهَا وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ}[الأنعام:١٦٤].

وقد تجتمع المتناقضات فيُسأل عنها بـ"كيف" قصدا للتنبيه ؛كما في قوله تعالى: {وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلاَ تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ}[الأنعام:٨١] ،وقد أُتبع هذا الاستفهام باستفهام مجازي استنكاري لتأكيد التناقض في قوله تعالى: {أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلاَ تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللّهِ} ،فترجّح الفريق الآمن، وهو المستمسك بالله .

هـ- الاستفهام الداخل على أفعال التدبر والتفكر: من الأفعال التي تحث على التفكر في القرآن الكريم: "هدى ،نظر ،رأى ،أرشد ،درى "،وقد وردت هذه الأفعال في سياق الاستفهام الإنكاري

(١) دلائل الإعجاز: ٩٣

معلّقة عن العمل لغرض التعجيب ؛فالمتلقي يستحضر المقام ويتفكّر فيه ليطابقه مع الحقيقة، وهنا يظهر أنّ الخطاب الواحد قد تنتج عنه استجابات مختلفة بقدر اختلاف المعطيات المتوفرة لدى المتلقين لاختلاف تصوراتهم، نحو قوله تعالى: {أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّأُوْلِي النُّهَى} [طه:١٢٨]، {أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاء رَبِّهِمْ لَكَافِرُون} [الروم:٨]، وقوله تعالى: {أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ مُّبِين} [الأعراف:١٨٤] (١) .

ففحوى الآية الأولى الإخبار بالكثرة على من حق عليهم الهلاك من القرون السابقة، وهذا ما علمته القرون اللاحقة بها إلاّ أنّها لم تعتبر ،فمعنى الاستفهام: "وألم يرشدهم إلى الجواب:" كم أهلكنا قبلهم"، أي كثرة إهلاكنا القرون(٢)، أما الآية الثانية ،فتشير إلى مكابرة وافتراء أهل الشرك على الرسول ﷺ، وهم يصفونه بحال الجنون ،وهم يعلمون حق اليقين أنه أنبل أهل زمانه خُلقا وأرجحهم عقلا ،لهذا جاء الرد الرباني بالقصر﴿ إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ بعد نفي الجنون عليه ﷺ بـ﴿مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ﴾ لبيان أنّ الرسول منذر مبين ،فكيف لهم أن يزعموا غير ذلك أم أن الحقائق قد التبست عليهم ،فكان الكلام تعجيبا من الله للكفار(٣) .

تقدّم الحديث عن التدبر في غير الكون بالفعلين "هدى وتفكّر" ،أما إذا تعلّق الأمر بالتّبصُّر والتفكر في صفات الذات جُعل فعل القلب الفعل " نظر" متعلقًا بأسماء الذوات (٤)على البنية نفسها المذكورة أعلاه، كما في قوله تعالى: {أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُون}[الأعراف:١٨٥]، فتقليب النظر في السماوات والأرض ،وفي الخلق عامة لا تخفى على عاقل، وانعدام الإيمان بعد هذا الفعل مدعاة للعجب.

من أفعال التّدبّر أيضا الاسترشاد بالذكرى منفيا ،وقد تقدّمها أيضا حرف العطف كما في قوله تعالى: {أَوَلاَ يَذْكُرُ الإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا}[مريم:٦٧]،فالواو ربطت ما بعدها بقوله تعالى: {وَيَقُولُ الإِنسَانُ أَئِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا}[مريم:٦٦] ،والاستفهام في الآية

---

(١)يُنظر: التحرير والتنوير: ٩/ ١٩٤.

(٢) يُنظر: التحرير والتنوير : ١٦/ ٣٣٤.

(٣) يُنظر: التحرير والتنوير : ٩/ ١٩٤-١٩٥.

(٤)التحرير والتنوير ٩/ ١٩٦-١٩٨.

الأخيرة قول صـادر عن منكر للبعث، وهو ما أكد معنى الإنكار والتعجيب[1] من الله تعالى في الآية المتقدِّمة لوجود الظرف "من قبل"، ولتقييد الا ستفهام بالحال "ولم يكن شيئا" بو صفهما نا سخين دلاليين مؤكدين لمعنى التعجيب المخالط للإنكار الذي دعمه الإنكار السـابق له في الاسـتفهام الصادر عن الإنسان مجازًا ، فتناسخ الاستفهامان لإنشاء التعجيب. [2]

يُلاحظ في الآيات محل الشـاهد أنّ الاسـتفهام قد دخل على جملة فعلية منفية مصـدرة بحرف عطف، وكما هو معلوم أنّ الا ستفهام إذا دخل على نفي خرج عن أ صل دلالته إلى إفادة التقرير ،أي أن يُحمل المعنيُ بالخطاب على الإقرار بما بعد النفي ،ولأن الأفعال ههنا تدعو إلى التفكّر وقد سُـبقت بحرف من حروف العطف ، أفاد هذا التوزيع التعجيب بعد ربط الجملة المستفهَم عنها بما تقدّمها من كلام ،ويكون هذا الربط ربط تفكّر بعد تحليلٍ لعناصر الصورة الإجمالية.

و-الاسـتفهام الداخل على الفعل "رأى" :تكثر في القرآن الكريم الدعوة إلى التّدبّر بدخول الاستفهام بالهمزة على فعل الرؤية ؛لهذا فُصل في الدراسة عن أفعال التدبّر السابقة الذكر لتعدّد بناه، خا صة أنّ للفعل "رأى" دلالتين (الإبصار والعلم) ،وغالبا يأتي التّعجيب[3] بهذه البنية وقد تعدّى الفعل "رأى" بحرف الإضافة "إلى" مضافا إلى اسم موصول مفيدٍ التعميمَ ،وتأتي صلته لإحداث تلك الغرابة في النفس ،فيتولّد بذلك التعجيب.

الأصـل في فعل الرؤية البصرـية أن يتعدى إلى المفعول به تعدية مباشرة بلا حرف الإضـافة "إلى" نحو:" رأى زيد شخ صا غريبا "، ومن أجل إنشاء التعجيب يتعدّى هذا الفعل بإلى ويُقيَّد حالا صريحة أو يتعلّق به تعليل هو مثار العجب ، فالشـاهد على تعلّق الحال بالفعل "رأى" قوله تعالى {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلاَلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّواْ السَّبِيلَ}[النساء:٤٤] ،فـالتعجيب من حالهم بـ:{يَشْتَرُونَ الضَّلاَلَةَ }يراه ابن عاشور من إنزال الحال غير المرئية منزلة الحال المشاهدة بالبصر لشهرة الشيء وتحقّقه[4] ،وذلك أن أهل الكتاب – على

---

(١)التحرير والتنوير :١٦/ ١٤٥.

(٢) الصافي خديجة ،نسخ الوظائف النحوية في الجملة العربية. ،ط١ ،،دار السلام ،٢٠٠٨: ١١٨-١١٩.

(٣) وصف ابن عاشور التركيب :(أرأيت) بأنّه كلمة تعجيب مهما اختلفت توزيعات بنيته ، يُنظر: التحرير والتنوير: ٣٠/ ٤٤٦.

(٤) يُنظر : التحرير والتنوير ،الطاهر بن عاشور: ٥/ ٧١.

أحد التفاسير – قالوا لكفار قريش :"أنتم أهدىٰ من الذين آمنوا بمحمد سبيلا ،أي أقوم دينا وأرشد طريقا"[1] .

أما الشاهد علىٰ تقييد الفعل "رأىٰ" بلام تعليل قوله تعالىٰ {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَآجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رِبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللهُ الْمُلْكَ }[البقرة:٢٥٨]، فهذا الكلام يحمل المتلقي للخطاب علىٰ التعجّب من نمرود وحماقته، فكان قوله تعالىٰ: ﴿أن أتاه الله الملك﴾ مثيرا للعجب ؛لأن الله قد آتىٰ نمرود الملك ،وما كان من نمرود إلا أن يحاج في صفات الله إعجابا بنفسه وشكرا علىٰ طريقة العكس ،فحُذفت لام التعليل قبل "أن" لأنّه – يقول ابن عاشور –"تعليل محض وليس عِلَّةً غَائِيَّةً مَقْصُودَةً لِلْمُحَاجِّ مِنْ حِجَاجِهِ... أَيْ حَاجَّ لِأَجْلِ أَنَّ اللهَ آتَاهُ الْمُلْكَ، فَاللَّامُ اسْتِعَارَةٌ تَبَعِيَّةٌ لِمَعْنًى يُؤَدَّىٰ بِحَرْفٍ غَيْرِ اللَّامِ، وَالدَّاعِي لِهَاتِهِ الِاسْتِعَارَةِ التَّهَكُّمُ، أَيْ أَنَّهُ وَضَعَ الْكُفْرَ مَوْضِعَ الشُّكْرِ كَمَا فِي أَحَدِ الْوَجْهَيْنِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ [الْوَاقِعَة: ٨٢] "[2] ، فقارب معنىٰ الآية قولك:" عاديتني لأني أحسنت إليك" ،فتُظهر أنّ موجب العداوة كان الإحسان، والأصل أنّ الإحسان يوجب الموالاة[3].

قد يأتي فعل الرؤية البصرية مسبوقا بحرف عطف وقد دخل عليه الاستفهام بالهمزة كما في قوله تعالىٰ: ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنْ نَشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ﴾ [سبأ ٩] ، فالاستفهام هنا للتعجيب الذي يخالطه إنكار علىٰ انتفاء تأملهم فيما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض؛ فجيء بالفعل" رأىٰ" منفيًّا، إثباتًا من الله عز وجل لحالهم تلك في ابتعادهم عن التدبر في ملكوت الله[4]، أما عن الرؤية القلبية علىٰ هذه البنية فمنه قوله تعالىٰ {أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَدًا}[مريم:٧٧] [مريم ٧٧] وهو استفهام إنكاري تعجيبي[5].

ز- **الاستفهام الداخل على الفعل** "دلّ" وقد تعلّق به ما خفي عن المخاطب :مع أن الفعل "دلّ" من أفعال الا ستر شاد ،إلا أنّها قد تفرّدت عن أفعال التدبّر والتّفكر السابقة الذكر في

---

(١) يُنظر :الشوكاني محمد ،فتح القدير ،ت: أحمد عبد السلام ،ط١ ،دمشق ،بيروت ،دار ابن كثير ،دار الكم الطيب،١٤١٤ : ١/ ٣٩٠

(٢)التحرير والتنوير ،الطاهر بن عاشور: ٣/ ٣٢.

(٣) ينظر :الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل ،أبو القاسم الزمخشري: ١/ ٣٠٥.

(٤)التحرير والتنوير ،الطاهر بن عاشور:٢٢/ ١٥٢.

(٥)التحرير والتنوير : ٢٨/ ٢٩، ٤٨

قربها من الحقيقة ؛إذا دخل عليها ا ستفهام وقد تعدّىٰ الفعل بحرف الإ ضافة "علىٰ" ،وكان الا سم المجرور المتعلّق به أعجو بة في نظر المخا طَب ، يحدث حينئذ التعجيب ، كما حدث عند ادعاء المشركين الإنباء بالبعث ﴿إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ في قوله تعالىٰ: {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيد. أَفْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلاَلِ الْبَعِيد} [سبأ ٧-٨] ،فلم يكن غر ضهم الإر شاد حقيقةً، بل حرصـوا علىٰ حمل المخاطب علىٰ التعجيب من هذا النبإ ، أي "هل ندلكم علىٰ أعجوبة من رجل ينبئكم بهذا النبأ المحال"[1] أي بالبعث، وقد وصفه ابن عا شور بالعرض[2] التعجيبي ،لأنه قد يظهر العرض[3] دون التعجيب كما في قوله تعالىٰ: {فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَاآدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لاَّ يَبْلَىٰ}[طه:١٢٠] ؛لأنه أنسـب المعاني -كما يرىٰ ابن عاشـور- للاسـتفهام لقربه من حقيقته وهو الطلب ،ولأن هذا الخطاب كان في الجنة ،وقد اختلف الزمان والمكان عن الحقيقة في الدنيا ،فلربما لم يكن عجيبا بالنسبة لآدم عليه السلام أن يرىٰ مثل هذه الشجرة في الجنة، وكل شيء فيها سرمدي ،والله أعلم .

ح- **الاسـتفهام المسـبوق بتنبيهٍ:** ومن آليات التنبيه في القرآن الكريم توظيف الفعل "قل" المعلّق عن العمل قبل الاسـتفهام المجازي نحو قوله تعالىٰ: {قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْـتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُون}[يونس:٥٠ ،وقد تُوظّف للتنبيه أيضـا الأفعال الدالة علىٰ التدبّر والتّفكّر، وذلك قبل الا ستفهام المجازي ؛كتوظيف الفعل "نظر" علىٰ صيغة الأمر بمعنىٰ الحث علىٰ إعمال البصيرة زيادة علىٰ إعمال البصر ،وقد ا ستُفهم عن حال بـــ"كيف" ،نحو قوله تعالىٰ: {انظُرْ كَيْفَ كَذَبُواْ عَلَىٰ أَنفُسِـهِمْ وَضَـلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُون}[الأنعام:٢٤] ،ففي الآية الكريمة يُعمل المخاطب عقله ليتدبّر فيما آلت إليه حال من أعرض عن الحق وجنف وقد وضُحت الحقيقة، فيتعجّب من غفلتهم ،وربما اعتبر واتّعظ.

يعدّ النداء أيضا من آليات التنبيه البيِّنة لأنه في هذا الغرض قد يتضمّن وصفا للمنادىٰ ،فإذا أُتبع النداء باسـتفهام مجازي ،وغالبا ما يكون مسـبوقا بلام التعليل ، صُرف المعنىٰ إلىٰ التّعجيب لانتفاء الصـفة المنادىٰ بها مع مدخول الاسـتفهام ،كانتفاء العلم بما هو في الكتاب من أوامر ونواهٍ؛

---

(١)التحرير والتنوير : ٢٢/ ١٤٧.

(٢) العرض :"طلب الشيء برفق ، كقولك لمن تراه لا ينزل :"ألا تنزل تصب خيرا"، أي "إن تنزل ،تُصب خيرا" :مغني اللبيب: ١/ ٣٩٥.

(٣)التحرير والتنوير:١٦/ ٣٢٥.

لدخول الاستفهام على ما يشير إلى الجمع بين المتناقضات ،كالجمع بين التحاج مع انعدام العلم ،و بين الحق والباطل ،وبين الكفر والشهادة ،وبين الصدود والشهادة كما في قوله تعالى في الآيات تباعا: {يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالإِنجِيلُ إِلاَّ مِن بَعْدِهِ أَفَلاَ تَعْقِلُون}[آل عمران:٦٥] ،وقو له أيضا: {يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُون}[آل عمران:٧١] ،وقو له : {يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُون}[آل عمران:٧٠]، وقوله أيضا: {قُلْ يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَاء وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُون}[آل عمران:٩٩].

نلاحظ أنّ الا ستفهام في الآية الأولى كان مقيّدا بجملة حالية قد أفادت الحصر ،وقد أُتبع هذا الا ستفهام با ستفهام مجازي آخر يحثّهم على التفكّر في قوله تعالى: {أَفَلاَ تَعْقِلُون}[آل عمران:٦٥] ،ثمّ أُتبعت هذه الآية أيضا بما يفيد التنبيه أيضا على حال مستغربة ؛بالهاء قبل ضمير المخاطب "أنتم" وهو مبتدأ، وبالتنبيه باسم الإشارة وقد دخلتها الهاء أيضا في الخبر ،في قوله تعالى: {هَاأَنتُمْ هَؤُلاء حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ }[آل عمران:٦٦].

تقدّم في الآية السابقة بيان أنّ ا سم الإ شارة يوظّف للتنبيه أيضا ،فإذا أُردف با ستفهام مجازي نحو قوله تعالى :{ذَلِكُمُ اللّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُون}[غافر:٦٢] ، دل على التعجيب، والمعنى يقول سيد قطب :"وإنه لعجيب يستحق التعجيب أن يرى الناس يد الله في كل شيء، ويعلموا أنه الخالق لكل شيء معرفة حتمية مفروضة على العقل فرضاً بحكم وجود الأشياء، واستحالة ادعاء أحد أنها من خلقه، وعدم استقامة القول بأنها وجدت من غير موجد . عجيب يستحق التعجيب أن يكون هذا كله، ثم يصرف الناس عن الإيمان والإقرار(١).

ط- الا ستفهام والعطف: من سنن العرب في كلامها أن يتو سط حرف العطف بين همزة الا ستفهام والمُستفهم عنه لإنشاء التعجيب ،وقد لوحظ تنوع في الجمل المستفهَم عنها ؛ بين جمل فعلية مقيّدة بحال جملة- غالبا -وقد سُبقت بحرف العطف ،وبين جملة شرطية قد تقدّمها حرف عطف :

فمن النمط الأول قو له تعالى: {أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتاً وَهُمْ نَآئِمُون}[الأعراف:٩٧]، و قو له أيضا {أَوَ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُون}[الأعراف:٩٨] ، وقو له تعالى: {أَفَغَيْرَ اللّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلاً} [الأنعام:١١٤ ،وقوله أيضا :{أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُواْ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلاَمَ اللّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُون}[البقرة:٧٥] ،فالحال في الآيات هي على التوالي

(١) قطب سيد ،في ظلال القرآن ،سيد قطب ،دار الشروق : ٥/ ٣٠٩٤

: {وَهُمْ نَآئِمُون}و {وَهُمْ يَلْعَبُون} ، وو{أَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلاً}، و{ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلاَمَ اللّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُون} ،وقد أسهم في الحال الأخيرة محلّ تعجيب ،كون خبر كان جملة فعلية مقيّدة بجملة حالية أيضا.

أمّا عن النمط الثاني من هذا التوزيع، وهو دخول الاستفهام على حرف عطف وقد تقدّم جملةً شرطيةً، فالشاهد فيه قوله تعالى :{ أَفَكُلَّمَا جَاءكُمْ رَسُولٌ بِمَا لاَ تَهْوَى أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقاً تَقْتُلُون}[البقرة:٨٧] ،وقوله تعالى:{أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنتُم بِهِ آلآنَ وَ قَدْ كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُون}[يونس:٥١] ،وقوله {أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُون}[الأنعام:١٢٢].

فـــ"كلما ،و إذا ،و"من" أسماء شرط ،و علاقة فعل الشرط بجوابه في هذه الآيات سببية حقيقةً أو مجازا ،وكان دخول الاستفهام عليها وقد رُبطت بما تقدمها من كلام بحرف العطف –الفاء في الأولى، و"ثم" في الثانية ،و"الواو" في الثالثة – سببا في تصنيف هذه البُنى ضمن الاستفهام المجازي ، يقول ابن عاشور: "وقد استقريت هذا الاستعمال فوجدت مواقعه خاصة بالاستفهام غير الحقيقي كما رأيت من الأمثلة، ومعنى الفاء هنا تسبّب الاستفهام التعجيبي الإنكاري"(١)، والمعنى: "أتزيدون على مخالفتكم استكباركم كلما جاءكم رسول"، وهذا متأتٍّ في حروف التشريك الثلاثة كما تقدم .

إذن يكون الإنكار في هذه البنى تعجيبا ؛تعظيما لفعلٍ ما :"لِم كان!؟" مع توبيخٍ لفاعله، أو نفيا لأن يكون الفعل قد كان من أصله ،وهذا أقصى درجات التعجيب لادِّعاء ما يستحيل أن يكون قد كان، كما في قوله تعالى:{أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلآئِكَةِ إِنَاثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلاً عَظِيمًا}[الإسراء:٤٠](٢).

ي- دخول الاستفهام على الشرط المعلّق: بعد استعراض بنية التعجيب في الاستفهام الداخل على حروف العطف ،تبيّن أنه قد تلي هذا الحرف جملة شرطية ،تتغيّر – على هذا التوزيع – علاقة الشرط بجوابه فيها ، وربما قد يُعلّق الشرط في الأساس ،فلا يحتاج إلى جواب وذلك بحرفي الشرط "إن" و"لو" ؛ فالشرط بـــ"إن" يفيد الاحتمال ،والعرب تأتي بـــ"إن" في الشرط نادر الحصول ،وإذا امتنع حصوله في نفس الأمر جاؤوا بـــ"لو" للدلالة على أنه قريب من الممتنع عن

(١)التحرير والتنوير ،الطاهر بن عاشور: ١/ ٥٩٧

(٢) دلائل الإعجاز ،عبد القاهر الجرجاني: ٩٠

طريق المجاز المرسل بالتبعية ،والهمزة مستعملة فيه للإنكار كناية وللتعجيب إيماءً[1] ،نحو قوله تعالى : {أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدُونَ}[البقرة:١٧٠].

تُوظّف "لو" و"إن" في مثل هذه التراكيب حينئذ لمجرد الوصل والربط في مقام التأكيد كما يراه التفتازاني؛فالشرط حينئذ هو أقصى الأحوال التي يحصل معها الفعل الذي في جوابها المفهوم من سياقٍ مُتقدِّم، تقديره :"لاتّبعوكم" بدليل قوله تعالى: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا} [البقرة:١٧٠] ،والهمزة للاستفهام عن علاقة الشرط بجوابه.[2].

اختلف المفسرون حول الواو المتقدِّمة على "لو" ، فرأى الزمخشري أنّها للحال (محل الإنكار)[3]، وهي لعطف جملة على جملة عند ابن عطية [4]،وأضاف ابن عاشور أنّها للاستئناف البياني (عبّر عنه الرضي بالاعتراض) والشرط فيه ضعيف ،"إذ ما بعد الواو من جملة الكلام الأول غير أنّه جواب سؤال يخطر ببال السامع"[5]،وقد جمع أبو حيان بين رأيي كلٍّ من الزمخشري وابن عطية بقوله :"هذه الجملة المصحوبة بـ"لو" في مثل هذا السياق، هي جملة شرطية ؛ فإذا قال:" اضرب زيداً ولو أحسن إليك"، المعنى: وإن أحسن، ... وتجيء "لو" هنا تنبيهاً على أن ما بعدها لم يكن يناسب ما قبلها، لكنها جاءت لاستقصاء الأحوال التي يقع فيها الفعل، ولتدل على أن المراد بذلك وجود الفعل في كل حال، حتى في هذه الحال التي لا تناسب الفعل ؛ ولذلك لا يجوز: اضرب زيداً ولو أساء إليك... فإذا تقرر هذا، فالواو في "ولو" في المثل التي ذكرناها عاطفة على حال مقدرة، والعطف على الحال حال، فصحّ أن يقال: إنها للحال من حيث أنها عطفت جملة حالية على حال مقدرة ،والجملة المعطوفة على الحال حال" [6].

يرى أبو حيان أنّه لا يجوز حذف هذه الواو الداخلة على "لو" تنبيهاً على أنّ ما بعدها لم يكن ينا سب ما قبلها، وهذا ما شاع ا ستخدامه في أ سلوب التّعجيب بإيراد المتقابلات في سياق واحد؛ فالضرب ليس جزاءً للإحسان ،وإنّما الإحسان من ضمن كل الأحوال التي قد تصدر عن زيد، وإذا حدث هذا الأمر (الضرب جزاء الإحسان) ، ،وهذا ما أفاده دخول الواو على "لو" ،فلو لم يتحقق

---

(١)التحرير والتنوير ،الطاهر بن عاشور : ٢/ ١٠٦

(٢) التحرير والتنوير ،الطاهر بن عاشور :٢/ ١٠٩.

(٣) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل ،أبو القاسم الزمخشري :١/ ٢١٣.

(٤) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ،ابن عطية الأندلسي:١/ ٢٣٨.

(٥)التحرير والتنوير ،الطاهر بن عاشور : ٢/ ١٠٨

(٦) البحر المحيط ،أبو حيان الأندلسي: ٢/ ١٠٣.

هذا الدخول لكان معنى "لو" الشرط ،أي: " اضرب زيدا لو أحسن إليك" ،فما بعد "لو" مدعاة للتعجب ،وتكون دلالة الاستفهام حينها على التعجيب ،وذلك من أجل وضع المعني بالخطاب في حالة شعورية؛ بتنبيههم وهم يُقلِّدون من غير تحكيم للعقل فيما يفعلون ،فإذا منّ الله عليهم بالهداية، استغربوا مما هم عليه فانتابهم انفعال ؛قد يكون سببا في تحسين حالهم ،فمعنى الاستفهام في الآية الكريمة:" أيتبعونهم ولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً من الدين ولا يهتدون لد صواب "[1]، أو :" ولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون لا تّبعوهم"[2]،ونظير هذا المعنى قوله تعالى: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ}[لقمان:٢١] ،ليظهر أنّ "لو" بعد العطف والا ستفهام في هذا التركيب يسبقها غالبا شرط بـــ"إذا" ،يكون هذا الاستفهام مبيِّنا للجواب الذي يحدث معه التعجيب ،فالمعنى :" وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله ،اتّبعوا الشيطان الذي يدعوهم إلى السعير".

قد يكون الخطاب وفق هذا التوزيع (همزة ا ستفهام + حرف عطف + لو) صادرا عن المتكلِّم، وفي هذه الحال ،يدلّ الاستفهام على التعجّب وليس على التعجيب ؛منه قوله تعالى : {قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ} [الأعراف: ٨٩]

فالاستفهام مستعمل في التعجب، "وذلك التعجب تمهيد لبيان تصميمه ومن معه على الإيمان، ليعلم قومه أنّه أحاط خبراً بما أرادُوا من تخييره والمؤمنين معه بين الأمرين: الإخراج أو الرجوع إلى ملّة الكفر"[3]، وربما عبّر الزمخشري عن التّعجيب في الآية المذكورة بالتّعجب تجوّزا على اعتبارهما من مادة لغوية واحدة، وعلى أنّ التعجيب ليس مصطلحا ههنا بينما هو المتوخى من الفعلين، ففي التعجب يحدث تعجيب للنفس، وفي التعجيب نقل لهذا الفعل إلى شخص آخر.

أما عن الشاهد على دخول الاستفهام على الشرط المعلّق ،فمنه قوله تعالى:{وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ }[الرعد:٥] ،فالفعل "تعجب " في هذا الـ سياق لا يقـ صد تعلقه بمعمول معين فلا يقدر:" إن تعجب من قول أو إن تعجب من إنكار، بل ينزل الفعل منزلة اللازم ولا يقدر له مفعول ، والتقدير: إن يكن منك تعجب فاعجب من قولهم..... الخ"[4]،

---

(١) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل ،أبو القاسم الزمخشري: ١/ ٢١٣.

(٢) التحرير والتنوير ،الطاهر بن عاشور: ٢/ ١٠٦

(٣) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل ،أبو القاسم الزمخشري:٢/ ١٣٠.

(٤) التحرير والتنوير ،الطاهر بن عاشور:١٣/ ٨٩.

العجب ثابت بدليل قولهم: ﴿أإذا كنا تراباً أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ سـواء عجب منه المتعجب أم لم يعجب، "ولكن المقصـود أنه إن كان اتصـاف بتعجب فقولهم ذلك هو أسـبق من كل عجب لكل متعجب"؛ فوقوع الفعل في سياق الشرط يفيد العموم كما إذا وقع في سياق النفي، وفائدته التشويق لمعرفة المتعجب منه تهويلاً له أو نحوه، وهذا ما أفاده التنكير في قوله: ﴿فعجب﴾(1).

ك- توالي الاستفهامات المجازية: يكثر في التّحاج توالي الاستفهامات المجازية وقد توفّرت كل عناصر بنى التعجيب السـابقة الذكر ،أو توفّر بعضـها ؛من ذلك أن يتقدّم التنبيه هذه الاستفهامات، وإذ يكون أول استفهام منها داخلا على حرف من حروف العطف غالبا ما يكون الفاء المفيد للتفريع أو الواو، وبسبب هذا التوزيع يخرج الا ستفهام الأول إلى معنى التعجيب لأنّ ما بقي من ا ستفهامات متعلّق به نحو قوله تعالى { قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُون}[الزمر:٣٨] ،فالفاء ربطت عبادة غير الله بإقرارهم المتقدِّم بحق توحيد الله ،وهو الخالق، إذ سُئلوا في قوله تعالى: {وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ} .

من الاستفهامات المتتابعة لإنشاء التعجيب قوله تعالى: {أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُون أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُون}[الواقعة:٥٨-٥٩] ،وقوله أيضـا :{أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُون أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُون}[الواقعة:٦٣-٦٤] ،وقوله أيضا :{أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاء الَّذِي تَشْرَبُون أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُون}[الواقعة:٦٨-٦٩]

{أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُون أَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِؤُون}[الواقعة:٧١-٧٢] .

لوحظ أنّ تتابع الا ستفهامات قرينةٌ وا ضحة على التّعجيب ،خاصة ما أشار منها إلى الأحوال؛ صراحةً بـــ"كيف" نحو قوله تعالى: {وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلاَ تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُون}[الأنعام:٨١] ،وقد تم بيان ما بقي من قرائن على التعجيب في هذا الشاهد ،ويمكن لهذه الا ستفهامات أن تتضمّن حالا نحو قوله تعالى{أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلاَ تَعْقِلُون}[البقرة:٤٤]،أو أن يكون الحال كناية بأحد أدوات الاسـتفهام الخارجة عن أصـل دلالتها؛ من ذلك قوله تعالى ردا على المشركين وتكذيبا لادّعاءاتهم بالحجج الداحضة: {أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِين}[الصافات:١٥٣]، وكل هذه الشواهد تم بسط الحديث عنها.

---

(١) ينظر :الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل ،أبو القاسم الزمخشري:٢/ ٥١٣ ، البحر المحيط ،أبو حيان الأندلسي:٦/ ٣٥١ ،التحرير والتنوير ،الطاهر بن عاشور :١٣/ ٨٩.

ففي الآية الأولى ظهر استنكار واضح لحال المشركين ،فقُدِّمت المتقابلات لإرغام المخاطب على الخضوع للتعجب لاستحالة المقارنة بين ما يدّعون من آلهة ،وبين المعبود حقا الله عزّ في علاه، وهذا ما أكّد الاستفهام الأخير: {وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلاَ تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا} [الأنعام:٨١]﴿ فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُون ﴾ ،أما الآية الثانية فكان الجمع بين الحالين الجملتين المتعارضين عقلا :﴿وتنسون أنفسكم﴾و ﴿وأنتم تتلون الكتاب﴾ مدعاة للتعجيب، خاصة بعد تعقيبه (أي الاستفهام) باستفهام يحثهم على التفكّر وقد نُفي عنهم العقل في ﴿أفلا تعقلون﴾ لحثهم على التّدبّر، أي :"تدبّروا ".

أما الآية الثالثة فقد مثّلت التعجيب من الأحوال بما يدل عليها كنايةً ،كان أول الاستفهامات قوله: ﴿أصطفى البنات على البنين ﴾ ،وهو ما كان بؤرة التعجيب ،ليتلوه قوله تعالى:﴿ مالكم﴾ للإنكار على المشركين، ثم جيء بالاستفهام الثالث لزيادة التعجيب استنكارًا لهذه الحال صراحة بـ"كيف" في قوله تعالى: ﴿كيف تحكمون﴾الصافات[١٥٤].(١١٠)

قد تأتي الاستفهامات متتابعة لغرض التعجيب بعد الفعل المعلّق عن العمل "قل" لأنه لا يُنتظر بعده أن يكون هناك قول ،بل جيء به في القرآن غالبا في مثل هذا السياق لغرض التبكيت عند المحاجاة؛ ليكون أول هذه الاستفهامات بالهمزة مع المخاطبة بفعل الرؤية مثبتا حيث إنّ معموله شرط، والثاني استفهام تصوري – غالبا – هو جواب للشرط ،ليُتبع الاستفهامان بجواب مصدّر بـــ"قل " أيضا ،من ذلك قوله تعالى : {قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ اللّهُ وَمَن مَّعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ}[الملك:٢٨]،فالاستفهام الأول يبدأ بـــ﴿ أرأيتم﴾ والثاني تصوري يبدأ بـ:﴿ من يجير ﴾ ،وكان الجواب وهو قوله تعالى : ﴿هو الرحمن آمنا به وعليه توكلنا﴾ مُلزما للمنكر أن يقف متعجبا من حاله ،وقد خوطب بعدها – مع التأكيد بالسين (وهي لتأكيد الفعل مستقبلا) بـــ:ـــ{قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا }[الملك:٢٩] ﴿ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ ﴾، ومثل هذا التوزيع كثير في القرآن(٧٣) إلا أنّ الاستفهام التصوري منه قد يكون بـــ"ماذا" نحو قوله تعالى : {قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ}[يونس:٥٠]، وقد يكون الاستفهام تصديقيا بالهمزة نحو قوله تعالى:{قُلْ أَرَأَيْتُكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ}[الأنعام:٤٠] ،أو بـــ"هل" نحو قوله تعالى :{قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلاَّ الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ}[الأنعام:٤٧].

---

(١١٠) :البحر المحيط ،أبو حيان الأندلسي:٩/ ١٢٧.

(٧٣) مثل: الملك ٢٩،٣٠ ، الفرقان ٤٣ ،والعلق١٣،١١،٩

قد يتكرر الفعل "قل" أو ما يقوم مقامه من أفعال تومئ إلى التعجيز في سياق التحاج وقد تتابعت الاستفهامات المجازية ،ليجد المخاطب نفسه حينها يتأرجح بين إجابات كانت بمنزلة المُسلّمات عنده، وبين حقائق ثابتة لا يمكن للعقل إنكارها لوضوح الحجج ،فمن تكرار الفعل "قل" قوله تعالى: {قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَالاً قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ}[يونس:٥٩] ،وقد يسدّ مسد هذا الفعل (قل) في مثل تلكم السياقات الفعل "نظر" في الأمر أي "انظر" كما في قوله تعالى: {قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَـهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ}[الأنعام:٤٦]، والفعل "رأى" في الأمر كذلك (أروني) كذلك قوله تعالى: {قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ}[الأحقاف:٤] .

يمكن توظيف حرف العطف المتوسط بين همزة الاستفهام ومدخولها في الاستفهامات المتتابعة عوضا عن الفعل "قل" كما في الآيات المتقدِّمة نحو قوله تعالى: {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ}[العنكبوت:٦٧] ،وقوله تعالى: {وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ}[العنكبوت:٦٨] ؛فموقع الحَرفين (الواو ،والفاء) في الاستفهامين الأول والثاني أحدث تنبيها كالفعل "قل" على ما استُنكر من أفعال المشركين من أهل مكة وقد خصّهم الله بالأمن خلافا لمن يسكن خارج مكة ،ومع ذلك هم يشركون، فهذا تذكير لهم حتى يعجبوا من سوء تقديرهم للأمور وقد كذّبوا بالله ،لأنّ مصير الكفار النار كما أفاده الاستفهام التقريري: {وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ}[العنكبوت:٦٨]، ومثل هذه الاستفهامات كثير في القرآن(٧٣) ،أغلبها يبدأ بتنبيه كما تمّ بيانه.

قد ينوب عن الفعل "قل" أيضا الفعل "قال" ؛غير أنه يأتي متبوعا بتنبيه بالنداء على التوزيع المذكور سابقا نحو قوله تعالى: {قَالَ يَاقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ}[هود:٦٣] ،وقوله أيضا: {قَالَ يَاقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ}[هود:٢٨]، فالتنبيه كان بندائهم بـ"يا قوم"، ثم أُتبع باستفهامات مجازية لم تخرج عن دلالة الاستنكار المثير للتعجيب.

---

(٧٣) مثل: العلق١٣،١١،٩ ، الأحقاف ٢٣ [الجاثية:٢٣]، [القصص:٧١]، [القصص:٧٢]

إذن ،يكثر هذا النوع من الاستفهامات المتتابعة في سياق التّحاج من أجل التضييق على المُنكر، فيقف الجرجاني –مثلا – متأمِّلا شـاهدا قرآنيا على هذا ،وهو قوله تعالى : { قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْـتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأُنثَيَيْنِ نَبِّؤُونِي بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَـادِقِين}[الأنعام:١٤٣] ،ليقول الجرجاني مبيِّنا سـبب إنكار التحريم ههنا : "وذلك إن كان الكلام قد وُضـع على أن يجعل التحريم كأنه قد كان ،ثم يُقال لهم:"أخبرونا عن هذا التحريم الذي زعمتم فيم هو؟ ،أفي هذا أم ذاك أم في الثالث؟ ليتبين بطلان قولهم...، ومثل ذلك قولك للرجل يدّعي أمرا وأنت تنكره :متى كان هذا ؛ أفي ليل أم نهار؟ ...لكي تضيِّق عليه "[1].

فوضـع هذه الخيارات من أجل التضـييق على المخاطب اسـتعانة بحرفي العطف (الواو وأم) دليل على التعجيب من حالهم ،وإن لم يوجد الحال بمعناه الوظيفي في كل الآيات السابقة الذكر، لكن وُجد ما يُنبئ عن تلكم الأحوال المسـتنكرة في اسـتفهامين متواليين في قوله تعالى : ﴿ما لكم كيف تحكمون﴾ على ما سيأتي بيانه لاحقا.

□

(١) دلائل الإعجاز ،عبد القاهر الجرجاني: ٩٠-٩١

خلاصة : من خلال النقاط المعروضة في البحث نستنتج ما يلي :

١-التعجيب ظاهرة لغوية قد أ شار إليها لغويونا عر ضا في أبواب متناثرة ، والملاحظ أنّ هذا المـ صطلح لم يـ ستقر فـ سُمِّي بالتعجب أحيانا بجامع المادة اللغوية (ع ج ب) ،ووُ صف أحيانا أخرى بالإنكار والاستبعاد، ومعلوم أنّ هذين المعنيين (الإنكار والاستبعاد) من عوامل التعجيب والتعجب معا ،لكن بمراعاة مُنشئه.

٢-يشترك التعجيب والتعجب في كونهما أساليب إفصاحية ،غير أنّ التعجب يكون على صادرا عن المُنفعِل المُفصِح ،و التعجيب يتعدّى المُفصِح إلى الآخر فيحمله على الانفعال تعجبا، ولا يُشترط في التعجيب أن يتأثر المنشئ له ، بل الهدف التأثير على الآخر حتى يتعجّب ويتحقق الغرض من التعجيب؛ كالتحفيز والترغيب والتشويق والتهديد.. وهلم جرا .

٣- يشترك التعجيب والتعجب في صيغة (ما أفعله) ،ويرجع تعيين أيّهما المقصود بدلالة السياق، فإن كانت هذه الصيغة من كلام الله حُملت على التعجيب.

٤- شاع عند النحاة واللغويين عامة جعلُ (أفعل به) من صيغ التعجّب ،غير أننا أشرنا إلى أنّ هذه الـصِّيغة من الـصِّيغ القيا سية التي ينفرد بها أ سلوب التعجيب ،وبذلك نبتعد عما أُثير حولها من جدال.

٥- يُردُّ التعجيب وظيفيا إلى دلالة الإنكار في الا ستفهام المجازي ،فكان الا ستفهام خير معبِّر عن هذه الظاهرة لتضمّنه السؤال عمّا يُجهل سببه ، فإذا عُرف السبب بطُل العجب.

٦-يقع التعجيب دائما بالأحوال ،لهذا لا يخلو الاستفهام المنبئ عن هذا الانفعال من دلالة الحال الصريحة منها (الحال المفردة أو الجملة) أو الضمنية (ما يشترك مع الحال كالخبر والصفة).

٧-يتضمّن الاستفهام المجازي المنشئ للتعجيب قرائن شبه مستقرة في كلِّ بُناه ،كتعليق الأفعال من مثل أفعال التدبّر والتّفكّر (رأى بمعنييه البصري والقلبي ،هدى..وهلم جرا)، وتعليق الوظائف العامة (الأ ساليب) كتعليق الشرط بحذف جوابه أو تغيّر اتجاه العلاقة التي تربطه بجوابه .

٨-أبرز آلية في وظيفة التعجيب هي التنبيه ،وقد تكرر توظيفه في القرآن استعانةً بالفعل "قل"، وبالنداء ،وباسم الإشارة ،وبالاسم الموصول ،وبحروف العطف الداخل عليها الاستفهام، وبالجمع بين المتقابلات في سياق واحد ،وقد تنفرد كل آلية بسياق خاص ،وقد تجتمع كلها لتحقيق التعجيب في سياق التحاج غالبا.

٩- من آليات التنبيه أيضا لإحداث التعجيب تتابع الاستفهامات المجازية في سياق واحد.

١٠- تنوعت بُنى التعجيب بالاستفهام بالهمزة لأنها أصل الأدوات.

١١-قد يأتي التعجيب بغير ما ذُكر في هذا البحث ، استعانةً بالقصد في الأساليب الخبرية (الخبر بُناه عديدة لا يمكن حصرها) ؛كتصدّر التنبيه للجملة الخبرية ،وحكاية الخبر المستغرَب ؛كأن أُخبِر طفلا صغيرا عن شيء يرى تحقّقه مستحيلا ،فيتفاعل الخبر مع نفسه إنكارا ،فإعجابا ؛نحو قولي لمن يثق بي :" اشترى لك والدك صحنا طائرا " ،أو " القصة التي أُعلن عنها في التلفزة عندي" ؛ فالصحن الطائر والقصة كان امتلاكهما عند الطفل مستبعدا ،ولكون الخطاب صادرا عن موثوق به غير منفعل تعجّبا من الخبر، زال الإنكار المحض عند الطفل ،وحدث التعجيب.

حاول هذا البحث سبر البنى الدالة على التعجيب في القرآن الكريم ،ويبقى جهد الإنسان دائما محدودا قد يعتريه النقص ،لهذا يمكن أن تفتح هذه المحاولة -بأخطائها- بابا لكل من يحمل حبّا لهذه اللغة ،ويسعى لإعلاء شأنها ؛بالكشف عن خباياها المكنونة التي رفعتها وميّزتها عن كل اللغات، وربما كانت وظيفة التعجيب من تلكم الدُرر.

□

المصادر والمراجع:

القرآن الكريم

- ابن الحاجب جمال الدين ،٢٠١٠ ،الكافية في علم النحو ،ت: صالح عبد العظيم الشاعر ، ط:١ ، القاهرة (مصر) ،مكتبة الآداب.

-ابن عاشور محمد الطاهر ،١٩٨٤ ،التحرير والتنوير "تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد ،تونس ،الدار التونسية للنشر.

-ابن عطية الأندلسي ،١٤٢٢،المحرر في تفسير الكتاب العزيز ، ت:عبد السلام عبد الشافي محمد، ط١ ،بيروت (لبنان) ،دار الكتب العلمية.

-ابن منظور أبو الفضل جمال الدين ،١٤١٤ ،لسان العرب ،ط٣ ، بيروت (لبنان) ،دار صادر.

-ابن هشام جمال الدين ،مغني اللبيب ،ت: محمد محي الدين عبد الحميد ،مكتبة الصادق.

-الإستربادي محمد الرضي ،١٤١٧/ ١٩٦٦،شرح الرضي لكافية ابن الحاجب ، السعودية، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.

-الأندلسي أبو حيان ، ١٤٢٠،البحر المحيط ،ت: صدقي محمد جميل ، بيروت (لبنان) ، دار الفكر

-البيضاوي أبو سعيد ،١٤١٨،أنوار التنزيل وأسرار التأويل ، ت: محمد عبد الرحمن المرعشلي، ط١ ،بيروت (لبنان) ،دار إحياء التراث العربي .

-الجرجاني عبد القاهر ،١٤١٩/ ١٩٩٨،دلائل الإعجاز في علم المعاني ،ت: محمد رشيد رضا د، ط١ ، بيروت (لبنان) ،دار المعرفة .

-جلال الدين القزويني،الإيضاح في علوم البلاغة ،ت: محمد عبد المؤمن خفاجي ،ط:٣، دار الجيل.

-حسان تمام ،٢٠٠٤،اللغة العربية معنها ومبناها، ط٤ ، بيروت (لبنان) ،عالم الكتب.

-الزجاج أبو إسحاق ، معاني القرآن وإعرابه ، ت:عبد الجليل عبده الشلبي ،ط١ ، بيروت (لبنان)، عالم الكتب.

-الزمخشري أبو القاسم جار الله ،١٤٠٧،الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل ،ط٣ ، بيروت (لبنان)، دار الكتاب العربي.

-سيبويه عمرو بن عثمان ،،١٤٠٨/ ١٩٨٨،ـــ الكتاب ،ت:عبد السلام محمد هارون ،ط٣، القاهرة (مصر) مكتبة الخانجي .

-السيوطي جلال الدين ،معترك الأقران في إعجاز القرآن ، ض: أحمد شمس الدين ، بيروت (لبنان)، دار الكتب العلمية .

-السهيلي أبو القاسم ،نتائج الفكر في النحو ،ت: عادل أحمد عبد الموجود وآخر ، بيروت (لبنان)، دار الكتب العلمية.

- إبراهيم السامرائي ،١٤٠٣/ ١٩٨٣،الفعل ز ما نه وأبنيته ، ،ط:٣ ، بيروت (لبنان)، مؤسسة الرسالة .

-الشافعي علي الصبان ،١٤١٧ هـ-١٩٩٧م ،حاشية الصبان على شرح الأشموني لألفية ابن مالك، ط١ـ ، بيروت (لبنان) ،دار الكتب العلمية.

-الشوكاني محمد ،١٤١٤،فتح القدير ،ت: أحمد عبد السلام ،ط١ ،دمشق (سوريا) ،بيروت (لبنان)، دار ابن كثير ،دار الكلم الطيب.

-الصافي خديجة محمد ،٢٠٠٨،نسخ الوظائف النحوية في الجملة العربية ،ط١، القاهرة (مصر)، دار السلام .

- عبد الله بن أحمد بن أحمد محمد ، النحو العربي بين القديم والحديث –مقارنة وتحليل- ،دار اليازوري العلمية للنشر والتوزيع.

-عبد الوافي وافي علي ، النحو الوافي ،ط٣، (مصر) ،دار المعارف.

-العكبري أبو البقاء ، التبيان في إعراب القرآن ،ت: علي محمد البجاوي ،عيسى البابي الحربي وشركاه.

-عضيمة محمد عبد الخالق ، "دراسات لأسلوب القرآن" ،القاهرة(مصر) ،دار الحديث.

-عماد الدين إ سماعيل ،الكناش في فني النحو والـ صرف ،ت: رياض بن ح سن الخوام ، بيروت (لبنان)، المكتبة العصرية للطباعة والنشر.

-الفراء أبو زكرياء، معاني القرآن ، ت:أحمد يو سف النجاتي وآخرون ،ط١ ،القاهرة (مصر)، الدار المصرية للتأليف والترجمة.

-قطب سيد ، في ظلال القرآن ، دار الشروق.

-مبارك فاطمة ، ٢٠١٥ ،العجب في أدب الجاحظ ،تونس ،الدار التونسية.

-المبرد أبو العباس ،١٤٠٩ / ١٩٨٩، ما اتفق لفظه واختلف معناه ،ت:أ حمد محمد سليمان،ط١، السعودية ،وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية.

- محمود نحلة،٢٠٠١ ، علم اللغة النظامي –مدخل إلى النظرية اللغوية عند هاليداي ط٢ ، بيروت د، ملتقى الفكر.

-النسـفي أبو البركات،١٤١٩/ ١٩٩٨ ،مدارك التنزيل وحقائق التأويل ، ت:يوسـف علي بديوي، ط١ ،بيروت (لبنان) دار الكلم الطيب.

-الهاشمي أحمد ،جواهر البلاغة ، تدقيق :يوسف الصميلي،بيروت (لبنان) ،المكتبة العصرية.

-الواحدي أبو الحسن ،١٤١٥/ .١٩٩٤،الوسيط في تفسير القرآن المجيد ، ت: عادل أحمد أبو الجود وآخرون ،ط١ ،بيروت (لبنان) ،دار الكتب العلمية.

المجلات:

-عفيفي أحمد مصطفى،١٩٩٢ ،حول الصيغ ودلالاتها في اللغة العربية ،صحيفة دار العلوم للغة العربية وآدابها والدراسـات الإسـلامية ،الإصـدار الرابع ،مصر ـ مج١/ ع١ ،محرم يوليه، ١٨١،١٨٢.